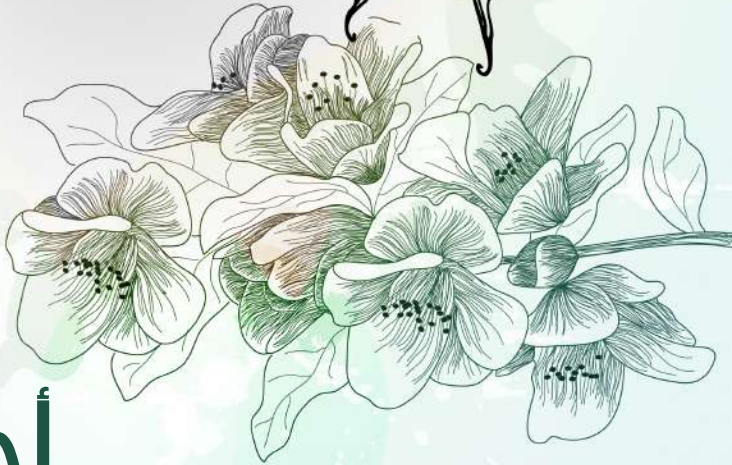


الحب والجمال عند العرب



أحمد تيمور

الحب والجمال عند العرب

تأليف
أحمد تيمور باشا



رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٩٩٤١

تدمك: ٢ ١٦٩ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2012 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	دعاء مأثور
٩	صفات الحب وأغراضه
٢٥	أنواع الحب
٣١	حب الأزواج
٤٩	الشعراء العشاق
٦١	الحب والجمال
٧٧	الغزل ووصف النساء
٩٣	العيون
١٠٥	تعدد الزوجات والأزواج
١٤٩	عداوة النساء
١٥٣	طرائف عن الحب
١٦٥	المصادر والمراجع

دعاء ماثور

من أفضل ما سئل الله عز وجل حبّه، وحبّ من يحبه، وحبّ عمل يقرب إلى حبه. ومن أجمع ذلك أن يقول المرء في دعائه:

اللهم إني أسألك حبّك، وحبّ من يحبّك، وحبّ عمل يقربني إلى حبّك.
اللهم ما رزقتني مما أحبّ، فاجعله قوّة لي فيما تحبّ، وما زويت عنيّ مما أحبّ، فاجعله فراغاً لي فيما تحبّ.
اللهم اجعل حبّك أحبّ إليّ من أهلي ومالي، ومن الماء البارد على الضمأ.
اللهم حبّبني إليك، وإلى ملائكتك، وأنبيائك، ورسلك، وعبادك الصالحين.
اللهم أحّي قلبي بحبّك، واجعلني لك كما تحبّ.
اللهم اجعلني أحبّك بقلبي كله، وأرضيك بجهدي كله.
اللهم اجعل حبّي كله لك، وسعيي كله في مرضاتك.

صفات الحب وأغراضه

الحب ما هو؟

قال أبو بكر الورّاق: سأل المأمون عبد الله بن طاهر ذا الرياستين عن الحب ما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إذا تقادحت جواهر النفوس المتقاطعة بوصل المشاكلة، انبعثت منهما لمحة نور تستضيء بها بواطن الأعضاء، فتتحرك لإشراقها طبائع الحياة؛ فيصوّر من ذلك خلقٌ حاصرٌ للنفس، متصل بخواطرها يسمّى الحب.

وسئل حماد الراوية عن الحبّ ما هو؟ فقال: الحبُّ شجرة أصلها الفكر، وعروقها الذّكر، وأغصانها السّهْرُ، وأوراقها الأسقام، وثمرتها المنية.

وقال معاذُ بن سهل: الحبُّ أصعب ما رُكب، وأسكر ما شُرب. وأقطع ما لُقي، وأحلى ما اشتُهي، وأوجع ما بَطُن، وأشهى ما عَلَن. وهو كما قال الشاعر:

وللحبِّ آفاتٌ إذا هي صرّحت وتبدّت علاماتٌ لها غررٌ صُفر
فباطنُهُ سُقمٌ وظاهره جوَى وأوله نكْرٌ وآخره فِكْرٌ

وقال بشار العقيلي:

هل تعلمين وراء الحب منزلةً تُدني إليك فإنّ الحبّ أقصاني

وقال غيره:

أصَابِكُ مِنْ وَجْدِ عَلِيٍّ جَنُونَ أَحِبُّكَ حُبًّا لَوْ تَحْبِبِينَ مِثْلَهُ
لَطِيفًا مِنَ الْأَحْشَاءِ، أَمَا نَهَارُهُ فدمعُ، وأما ليلُهُ فأُنيِنُ

وقال الفقيه الفيلسوف أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم في كتاب «طوق الحمامة في الألفة والألاف»: الحب أوله هزلٌ، وآخره جدٌ، دَقَّتْ معانيه — لجلالتهَا — عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة، ولا بمحذور في الشريعة؛ إذ القلوب بيد الله عز وجل.

وقد أحبَّ من الخلفاء المهديين، والأئمة الراشدين كثير.

وأفتى ابن عباس بأن قتيل الحب لا دية له، والحب اتصالٌ بين أجزاء النفوس. وقال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...﴾.

وللحب علاماتٌ منها: إدمان النظر إلى المحبوب، والإقبال بالحديث إليه، والإنصات إلى حديثه، وتصديقه وإن كذب، وموافقته وإن ظلم، والشهادة له وإن جار. ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه: التعفف، وترك ركوب المعصية والفاحشة. وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعةٌ يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ في طاعة الله عز وجل، ورجلٌ معلقٌ بالمسجد، إذا خرج منه لا يلث حتى يعود إليه، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجلٌ تصدق فأخفى؛ حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

الحب والمحبوب^١

قولهم: أحببت حبًّا: الحب ليس بمصدر لأحبيت، إنما هو عبارة عن الشغل بالمحبوب، ولذلك جاء على وزنه مضموم الأول، ومن ثم جمع كما يجمع الشغل، قال: ثلاثةٌ أحبَّاب: فحبُّ علاقة، وحبُّ لخلان، وحبُّ هو القتل.

وكلما كان الفعل أعمَّ وأشيع، لم يكن لذكر مصدره معنى، ولولا كشف الشاعر لاختلاف أنواع الحب ما كدنا نعرف ما فيه من المعموم، وأنه في معنى الشغل كما تقدم.

وقد أنشدوا في الصحاح بيتين هما:

أحبّ أبا مروان من أجل تمره وأعلم أنّ الحب بالمرء أرفقُ
ووالله لولا تمره ما حبيتهُ وكان عياضُ منه أدنى ومُشْرِقُ

ولما جاءوا إلى اسم الفاعل أتوا بالاسم الرباعي حتى كأنهم لم ينطقوا بالثلاثي فقالوا: محبٌّ، ولم يقولوا: حاب أصلاً. وجاءوا إلى المفعول فأتوا به من الفعل الثلاثي — في الأكثر — فقالوا: محبوب، ولم يقولوا: محب، إلا نادراً، كما قال:

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

فهذا من: أحببت كما أن المحبوب من: حبيت، ثم استعملوا لفظ الحبيب في: المحبوب، أكثر من استعمالهم إياه في المحبِّ، مع أنه يطلق عليهما. فمن مجيئه بمعنى المفعول قول ابن الدمينه:

وإن الكتيب الفرد من جانب الحمى إليّ وإن لم آته لحبيبُ

أي: لمحبوب. ومن مجيئه للفاعل، قول المجنون:

أتهجّر ليلي بالفراق حبيبها وما كلّ نفس بالفراق تطيب

فهذا بمعنى: محبها. وربما قالوا للحبيب: حبُّ، مثل: خدن، فخدنٌ وخدينٌ مثل: حبٌّ وحبيب. وإذا ثبت هذا فقوله: الحبُّ ليس بمصدر لأحبيت، إنما هو عبارة عن الشغل بالمحبوب، وأجروه على الفعل الرباعي استغناء عن مصدره، وهذا لكثرة ولوع أنفسهم بالحب وألسنتهم به، فاستعملوا منه أحب المصدرين استغناء به عن أتقلهما. فلما كان المحبُّ ملازماً لذكر محبوبه، ثابت القلب على حبه، مقيماً عليه لا يروم عنه انتقلاً، ولا يبغى عنه زوالاً، اتخذ له في سويداء قلبه وطناً، وجعله له سكناً، حيث قال:

تزل الجبال الراسيات وقلبه على العهد لا يلوي ولا يتغير

وفي شرح لامية العجم للصّفدي:

فالحبُّ حيث العدا والأسدُ رابضةٌ حول الكِناس لها غابٌ من الأسل

الحُب بالضم: المحبة، وبالكسر: الحبيب نفسه، قال ابن الأنباري: «الحب هو الحبيب، يقال للمذكر والمؤنث بلفظ واحد»، ويحكي عن بعض العرب أنهم يقولون: فلانة جَبَّتِي.

عشق الشرف، وعشق الجمال

قال عروة بن الزبير رحمه الله: «ما عشقت من امرأة قطَّ إلا حسن شرفها؛ فإني لأعشق الشرفَ كما أعشق الجمال».

وإنما أراد الحسب، وصراحة النسب، كما قال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: «ما عشقت من امرأة قط الا حسبها». وقال كُثَيِّرُ الشاعر:

وأنت التي حبيت كل قصيرةٍ إليّ وما تدري بذاك القصائر

ولم يرد: القصيرة القدّ، وإنما أراد المقصورة في الجمال، من قولك: قصره، إذا حبسه.

والمقصورة هي: المحبوبة. ومنه قول الله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، أي: محبوسات. وقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، أي: قصرن نظرهنّ على أزواجهنّ، فلا يبيغين بهم بدلاً.

ويدل على مراد كُثَيِّرٍ في بيته، قوله في البيت الذي بعده:

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطى، شر النساء البحاتر

والبحاتر: القصار.

أحلام المحبين

كان أبو القاسم عليّ الشريف المرتضى شاعرًا عَفَّ اللسان، يهوى الحسن أينما وجده، وينحو فيه منحى طاهرًا بريئًا، واشتهر بحب الجمال العذري، وقد عشق الأدب الرفيع، كما عمّر فوق الثمانين عامًا، حيث ولد سنة ٣٥٥ وتوفي سنة ٤٣٦هـ. ومن شعره:

ضَنَّ عني بالنزر إذ أنا يقظا نُّ وأعطى كثيره في المنام
والتقيننا كما اشتهينا ولا عيب ب سوى أنّ ذاك في الأحلام
وإذا كانت الملاقاة ليلاً فالليالي خير من الأيام

وقال الشريف الرضي (أخوه) وكان شاعرًا مثله يتفق معه في هواه، وحبه، وعشقه للحُسن والجمال:

بتنا ضجيعين في ثوبَي هوى وتقى يلفُّنا الشوق من فرقٍ الى قدم
وبات بارقُ ذاك الثغر يُوضح لي مواقع اللثم في داجٍ من الظلم

الحبيب الأول، والحبيب الآخر

قال حبيب الطائي:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيب الأول
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأوّل منزل

وقد ردّ عليه شعراء آخرون، فمن ذلك قول بعضهم:

افخرَ بأخر من كلفت بحبه لا خير في حب الحبيب الأول
أتشك في أن النبيّ محمداً ساد البرية وهو آخرُ مُرسل؟!!

ومنه قول ديك الجن الحمصي:

كذب الذين تحدثوا أنّ الهوى لا شك فيه للحبيب الأول
ما لم أحنُّ إلى خرابٍ مقفرٍ درست معالمه كأن لم يؤهل

فقال حبيب «حين بلغه قول ديك الجن»:

كذب الذين تخرّصوا في قولهم ما الحب إلا للحبيب الأول
أو طيبٌ في الطعم ما قد نُقته من مأكّلٍ أو طعم ما لم يؤكل

قال العلويّ الأصبهاني:^٢

دع حبّ أول من كلفت بحبه ما الحب إلا للحبيب الآخر
ما قد تولى لا ارتجاع لطيبه هل غائب اللذات مثل الحاضر؟
إن المشيب وقد وفى بمقامه أوفى لدي من الشباب الغابر
دنيك: يومك دون أمسك فاعتبر ما السالف المفقود مثل الغابر

الحب مع اختلاف الدين

قال أبو الطحان الأسيديّ، وكان نديماً لناسٍ من النصاريّ:

كأن لم يكن في القصر، قصر مقاتلٍ وزورة ظلّ ناعم وصديق
معى كلُّ فضفاض الثياب كأنه إذا ما جرى فيه المدام فتيق
وإني وإن كانوا نصارىّ أحبُّهم ويرتاح قلبي نحوهم ويتوق

وللشيخ رجب الحريري قصيدة يصف فيها حبه لفتى نصراني يقول فيها:

أرقُّ من روح الصبا وأطيب كالماء جسمًا باللحاظ يشرب
ولفظه السحر الحلال يطرب سكرتُ منه وهو شهدُ يعدُّ

صفات الحب وأغراضه

فأعجب لشهدٍ مسكرٍ من سحر
قابلتَه بأحسن الكلامِ مرحبًا معظَّمًا مقامي
ووجهه الوضاحُ في ابتسامٍ وخصني باللفظ والإكرام
وياجميل والحياء والبشرِ

الحب في كلِّ حال

قال عنترة العبسيُّ به يصف حبه لعيلةَ ابنة عمِّه، على ظلمها إياه:

أحبك يا ظلوم وأنت منِّي
ولو أني أقول: مكان رُوحِي
مكان الروح من جسد الجبانِ
لخفتُ عليك بادرةَ الطعانِ

وقال بعضهم في الوداع:

ودَّعتهم من حيث لم يعلموا
سألتهم تسليمةً منهم
ورحت والقلبُ بهم مُغرم
وأستحسنوا ظلمي فمن أجلهم
أحبُّ قلبي كل من يظلم

وقال دعبلُ الخزاعي:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
أجدُ الملامة في هواك لذيدةٍ
متأخرٌ عنه ولا مُتقدم
وأهنتني، فأهنت نفسي صاغراً
حبًّا لذكركِ فليُمني اللومُ
ما من يهون عليكِ ممن يُكرمُ

حُبُّ النِّسَاءِ الْمَالِ

قال الزبير بن بكار في أنساب قريش: ^٢ كان «نبيُّه وأخوه منبه» من وجوه قريش، وذوي النباهة فيهم، ولكنهما قتلا «ببدر» كافرَيْن، وكانا من المطعمين يوم بدر. لقد كان «نبيُّه» بضم النون وفتح الموحدة بعدها «ياء» ساكنه «فهاء»، وكنيته «أبو الزرام» بتشديد الزاي المعجمة، ابن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعيد بن سهم بن عمر بن هُصيص «بالتصغير» بن كعب بن لؤي بن غالب، وكان نبيُّه شاعرًا مطبوعًا على الإجابة، وقد قيل: إن زيد بن عمرو بن نفيل كان يقول:

تلك عرساي تنطقان لهجرٍ وتقولان قول أثرٍ وعَثرٍ

فقال نبيُّه من القافية نفسها في زوجته، وقد سألتاه الطلاق:

تلك عرساي تنطقان على عمدٍ أن اليوم قول زورٍ وهَترٍ
سألتاني الطلاق أن رأتا ما لي قليلًا ... قد جئتماني بِنُكرٍ
فلعلِّي أن يكثر المال عندي ويعرِّي من المغارم ظهري
وتُرى أعبدُ لنا وأواقٍ ومناصيف من خوادِمَ عشرٍ
ونجرُّ الأذيال في نعمةٍ ثمَّ تقولان: ضع عصاك لدهرٍ
وي كأن من يكن له نشبٌ يحب ومن يفتقر يعيشُ عيشُ ضرٍ
ويجنب سر النجِّي ولكن أخوا المال مُحضِرٌ كلَّ سرٍ

ومن شعره:

قصر الشيء بي ولو كنت ذا ما ل كثير لأجلب الناس حولي
ولقالوا: أنت الكريم علينا ولحطوا إلى هواي وميلي
ولكلتُ المعروفَ كيلاً هنيئًا يُعجز الناس أن يكيلوا ككيلي

وله أيضًا:

قالت سُلَيْمَى يوم جئت أزورها
لا أبتغي إلا امرأً ذا أنضُرٍ
لا أبتغي إلا امرأً ذا مالٍ
كَيْما أُسدُّ مفارقي وخِلالِي
فلأحرصن على اكتسابِ محبِّبٍ
ولأكسبن في عفةٍ وجمالٍ

في خلاصة الأثر ج ٢

كان الأديب حسين بن أحمد بن حسين المعروف «بابن الجزري» الشاعر المشهور الحلبي أحد المجيدين، جمع شعره بين الصناعة والرقّة، كان إذا تكلم لا يظنّه الإنسان يعرف شيئاً، وكان له خطٌّ نسخي غاية في الحسن إلا أنه كان شديد الأخلاق أحياناً، وكان مغرماً بشعر أبي العلاء المعري، كثير الأخذ منه، وأخيراً رآه في منامه، وقرأ عليه اللزوميات، وسمعه يقرر في تلك الرؤيا: أنّ الخير كل الخير فيما أكرهتك النفس الطبيعية عليه، والشر كل الشر فيما أكرهتك النفس عليه.
ومن شعر ابن الجزريّ:

إن كنت متخذاً لجرحك مرهماً
أو كنت مصطحباً حبيباً سالگاً
فكتابُ رب العالمين المرهمُ
سُبُلُ الهوى فلزوم ما لا يلزم

ومن شعره في الغزل:

ما عشت من ألم الفراق
فأظلل كالملسوع من
يا ثالث القمرين إلا
حتّام دمعِي فيك لا
وإلام يستسقي الفؤا
وغريق دمع العين لا
والحبُّ ما أروى الضلو
لو لم أطل أمل التلاقي
أفعى النوى، ورجاي راقِي
في الكسوف وفي المحاق
يرقا ... وروحي في التراقي
دُ ظمّاً، وأجفاني سواقي
تلقاه إلا في احتراق
ع جوى، وما أروى المآقي

فعساك أن تجزي محبك
ولقد لقيت هوك أعـ
وصبرت فيك على العدا
وعلمت أن الصبر يا
فاعرض عن الإعراض إعد
وارفق ولو بالالتفا
فلقد يكون تلفت الأ
واستبق مني باللقا
أعضاء صبب، ماله
فالبعض سود عيونها
وقدودهن رواشق
وإذا بليت بحبهن

في المحبة بالوفاق
ظم ما لقيت، وما ألقى
صبر الأسير على الوثاق
عذب اللّمي مرّ المذاق
راضى لديك عن النّفاق
ت على ما بين الرفاق
عناق داعية العناق
ء بواقياً ليست بواقى
إلاك من عينيك واقى
أمضى من البيض الرّفاق
في الطعن كالسمر الرّفاق
بليت بالدمع المراق

ومن جيد شعره قوله:

نتفداك ساقياً قد كساک الـ
تشرق الشمس من يدك، ومن فيـ
أو ليس العجيب كونك بدرًا
فتنة أنت إذ تميت وتحيي
لست من هذه الخليقة بل أنـ

حسن من فرقك المضيء لساقك
ك الثريا، والبدر من أطواقك
كاملاً، والمحاق من عشاقك
بتلاقيك من تشا، وفراقك
ت مليك أرسلت من خلّاقك

الحب خضوع النفس

وكان حاتم بن أحمد بن موسى بن أبي القاسم بن محمد بن أبي بكر بن أحمد بن عمر الأهدل اليميني الحسيني مشهوراً له بتحصيل أنواع العلوم والمعارف، والنظم والنثر، وقد رحل إلى كثير من البلدان، وأقام بالحرمين، ثم توطن المخا، وحصل له بها شأن عظيم يغبطه عليه صفوة أصحابه وأترابه، إذ كان له يد طولى في العلوم الشرعية، والفنون العربية، إلا أنه غلب عليه التصوف، كما كان متقناً لعلم الأسماء والحروف، ودوائر الأولياء، حتى إنه كان زاهداً في الدنيا، ومن شعره قوله مشطراً فائية ابن الفارض:

قلبي يحدثني بأنك مُتلفي عَجَلُ به ولك البقاء، وتصرفِ
 قد قلت حين جهلتني وعرفتني روحي فذاك عرفت أم لم تعرف
 أنت القتليل بأي من أحببته فلك السعادة في الشهادة يا وفي
 ولقد وصفت لك الغرام وأهله فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

وقال مخمّسًا قصيدة ابن النبيه:

رقم العذول زخرفًا وتصنعًا وأشاع نقض العهد عنك وشفّعًا
 فأجبتة والنفس تقطر أدمعًا أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعًا
 ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعًا
 حكم الغرام فلذُ به وبحكمه واثبت على مفروض واجب رسمه
 واخضع لعدل الحب فيه وظلمه من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه
 حلواً فقد جهل المحبة وأدعى
 يا من بلطف جماله قلبي اقتنص صبري على الأعتاب من جلدي نكص
 وثبات حُجلي حين زمزمتُم رقص
 يا صاحب الوجه الجميل تدارك الصِّ ببرّ الجميل فقد عفا وتضعضعا
 وفّرت من نبل اللواحق أسهمي وكلمت أحشائي ولم أتكلم
 وهجرتني ظلمًا ولم أتظلم هل في فؤادك رحمةً لمُتيم
 ضمت جوانحه فؤادًا موجعًا
 إنني اعترفت بزلتني وجنايتي ورضاك مقصودي وغاية غايتي
 يا من ضلّالي فيه عينٌ هدايتي هل من سبيل أن أبث صبابتي
 أو أشتكى بلوأي أو أتضرعا؟
 لي في حماك مسارح ومطامح كم بتُّ للغزلان فيه أطارح
 يا قلبُ إن اليوم طيبك نازحُ يا عينُ عُذرك أن حبي واضح
 كلي لفرقته أرادَ وأزمعًا

أشقى الناس أهواها

زين الدين أحمد بن علي بن الحسين بن علي الشافعي الحلبي، ولد بجلب، ونشأ بها، وكان له مذاكرة تأخذ بلُبِّ الصاحب ومحاضرات، وترغب من محاضرات الراغب، وله شعر قصير منه قوله:

كتبت وأفكاري بحبك مُرِّقت
ولو حُمَّ لي التوفيق كنت تركته
كما قد بدت في الحب كل ممزق
ولكنني أصبحت غير مُوفق
وإذا قيل أشقى الناس من بات ذا هوى
فلا تنكرن هذا المقال وصدق

وقال متغزلاً:

سألتها عن فؤادي أين مسكنه
قالت: لديّ قلوب جمّة جمعت
فإنه ضلّ عني عند مَسراها
فأيها أنت تبغي؟ قلت: أشقاها

رابعة العدوية

روى ابن خلكان قصة «رابعة العدوية» شهيدة الحب الإلهي، قال:

كانت أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية، مولاة آل عتيك، من أعيان عصرها، وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة.

وذكر أبو القاسم القشيري في «الرسالة» أنها كانت تقول في مناجاتها: إلهي ... أتحرق بالنار قلباً يحبك؟ فهتف بها مرة هاتف: ما كنا نفعل هذا، فلا تظني بنا ظنَّ السوء!

وكان سفيان الثوري عندها يوماً، فقال: واحزننا! فقالت له: «لا تكذب، بل قل: وا قلة حزننا؛ لو كنت محزوناً لم يتهياً لك أن تننّس».

وقال بعضهم: كنت أدعو لرابعة العدوية، فرأيتها في المنام تقول: هدايك تأتينا على أطباق من نور، مخمّرة بمناديل من نور.

وكانت تقول: ما ظهر من أعمالي فلا أعدّه شيئاً.
ومن وصاياها: اکتّموا حسناتكم كما تکتّمون سيئاتكم.

وأورد لها الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتاب «عوارف المعارف» قولها:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحثُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مُؤانسُ وحبیب قلبي في الفؤاد أنيسي

الحب أحسن المعاصي

في «لوعة الشاكي، ودمعة الباكي» لابن الصفدي:

انصف الليل، وأقبلت عساكر السعد بالرَّجُل والخيل، فأمرت صاحبي برفع المدام،
وتجهيز المرقد للمنام، فرفع الأواني في الحال، وأقبل على ذلك الشأن وطال، وعلق في المرقد
نفحات المسك الأذفر، وأطلق فيه مياخر الند والعنبر. ثم قال: أين ترسم لي أن أبيت؟
فقلت: نم عندنا لكن خارج البيت، فأنت ممن تحققنا منه المروءة والشفقة، فاخرج عنَّا،
ورد الباب بالحلقة. ففعل ما أمرناه وخرج، ولم يبق في الصدر همٌ ولا حرج، فقلت
لمحبيبي: أما تقوم بنا لننام، وأتنعم بتقبيل الثغر واعتناق القوام؟ فقال لي: أقوم ولكن
العناق حرام، فقلت: في عنقي تكون الأوزار والآثام:

فقام ينهض والصهباء تُقَعِدُهُ سُكْرًا وحاول أن يسعى فلم يُطق
وقال لي بفتورٍ من لوحظه إن العناق حرامٌ قلت: في عنقي

فقال: أستغفر الله من الفجور واللغط، ومن وقوعك أيها الإنسان في الغلط.
فقلت: لا تظن أن محبتك من المعاصي والسيئات، واعلم أن هোক من أفضل الفضائل،
وأحسن القربات.

أستغفر الله إلا من محبتكم فإنها حسناتي يوم ألقاه
فإن زعمتم بأن الحب معصيةٌ فالحب أحسن ما يُعصى به الله

الهوى قدرُ

أخبرنا أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش. قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن يزيد
المبرد قال: سألت أبا الفضل الرياشي عن معنى قول الشاعر:

الريح تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامة

فقال: هو عندي كقولهم: ويل للشجي من الخلي. ومعناه: أن البرق يضحك والريح
تبكي.

وذهب بعضهم إلى أن المعنى أن الريح تبكي شجوها، والبرق يبكي أيضاً وهو يلمع
في الغمامة.

وأنشدنا أبو بكر الأصبهاني لنفسه:

إلا تكن في الهوى أرويت من ظمأ
لقد دلت على أن الهوى بدلُ
فحسب نفسي غنى علمي بموضعها
وأنت خالٍ وقلبي ذا الذي ملكت
إنني وغلة نفسي فيك قائمة
ولم يكن باختيارٍ لي فأتركه
لكنه من أمور الله ممتنع
لن يضبط العقل إلا من يدبره
كن محسناً أو مسيئاً وابق لي أبداً

وأنشدنا لنفسه في مثل هذا:

فإن تكن القلوب إذا تجازى
فمالي أهونُ الثقلين جمعاً
عمدت سنين أستخفي التصابي
فلم تقلع صروف الدهر حتى
وتسلك في الهوى سنناً سويًا
عليك، وأنت أكرمهم علياً؟
ولا أرضى من الوصل الرضيا
خيسست عن أن أحيى أو أحيًا

صفات الحب وأغراضه

تَبَغَّضَ ما اسْتَطَعْتَ وَعَشَّ سَلِيمًا فَأَنْتَ أَحَبُّ مَخْلُوقٍ إِلَيَّا

وَأَنْشَدْنَا أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَاجَ قَالَ: أَنْشَدْنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدَ بْنَ يَزِيدَ:

يا أيها الراكب الغادي لطيته عرَّجَ أنْبُكَ عن بعض الذي أجد
ما عالج الناس من وجدٍ ألمَّ بهم إلا وجدت به فوق الذي وجدوا
حسبي رضاه، وأني في محبته وودّه آخرَ الأيام أجتهدُ

وَأَنْشَدَ سَلِيمَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ لِأَبِيهِ:

ألا إنما الإنسان غمدٌ لقلبه ولا خير في غمدٍ إذا لم يكن نصلُ
فإن كان للإنسان قلبٌ فقلبه هو النصل، والإنسان من بعده فضلُ

هوامش

- (١) بدائع الفوائد ص ٨٥.
- (٢) في الصناعتين ص ٣٣٤.
- (٣) في خزانة الأدب ج ٣.

أنواع الحب

ضروب المحبة^١

المحبة ضروبٌ: أفضلها محبة المتحابين في الله، ثم محبة القرابة، ومحبة الألفة والاشترار في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبة البرِّ يصنعه المرء عند أخيه، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين لسرِّ يجتمعان عليه، ويلزمهما ستره، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر، ومحبة العشق الناشئة عن اتصال النفوس.

حب الولد^٢

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس فقال: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرضٌ ذليلةٌ، وسماءٌ ظليمةٌ، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم، ويحبوك جهدهم، ولا تسكن عليهم ثقيلًا؛ فيملوا حياتك، ويحبوا وفاتك. فقال معاوية: لله أنت يا أحنف، لقد دخلت عليّ وإني لملوء غضبًا على يزيد، فسألته من قلبي.

فلما خرج الأحنف من عنده بعث معاوية إلى يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب. فبعث يزيد إلى الأحنف بمئة ألف درهم ومئة ثوب. وكان عبد الله بن عمر يذهب بولده سالم كلِّ مذهب، حتى لامه الناس فيه فقال:

يلومونني في سالم، وألومهم وجلدةً بين العين والأنف سالمٌ

وقال: إن ابني سالمًا، ليحبُّ الله حبًّا لو لم يخفهُ ما عصاه.
وكان يحيى بن اليمان يذهب بولده داود كل مذهبٍ حتى قال يومًا: أئمة الحديث
أربعة: كان عبد الله، ثم كان علقمة، ثم كان إبراهيم، ثم أنت يا داود.
وقال: تزوجتُ أم داود، فما كان عندنا شيء ألقهُ فيه حتى اشتريت له شكوةً بدانق.
وقال زيد بن علي لابنه: يا بني، إن الله لم يرضك لي فأوصاك بي، ورضيني لك
فحدّرنيك، واعلم أن خير الآباء للأبناء من لم يدعهُ التذليل إلى التفريط، وخير الأبناء للآباء
من لم يدعهُ التقصير إلى العقوق.
وفي الحديث المرفوع: «ريحُ الولد من ريح الجنة». وفيه أيضًا: «الأولاد من ريحان
الله».

وقال النبي ﷺ، لما بشر بفاطمة: «ريحانةُ أشمها، ورزقها على الله».
ودخل عمرو بن العاص على معاوية وبين يديه بنته عائشة، فقال: من هذه؟ قال:
هذه تفاحة القلب. فقال له: انبذها عنك، فوالله إنهنَّ ليلدن الأعداء، ويقربن البُعداء،
ويورثن الضغائن.
فقال له معاوية: لا تقل ذاك يا عمرو؛ فوالله ما مرض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا
أعان على الأحزان مثلهنَّ، وربّ ابن أخت قد نفع خالهُ.
وقال المعلّى الطائي:

لولا بُنيات كزُعبِ القطا يردُّن من بعضٍ إلى بعض
لكان لي مضطربٌ واسعٌ في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تُرقص الحسين بن علي (رضي الله عنهما) وتقول:

إن بُني شبه النبيِّ ليس شبيهاً بعليِّ

أنواع الحب

وكان الزبير بن العوام يرقصُ عُروة ابنه ويقول:

أبيض من آل أبي عتيق مبارك من ولد الصديق
ألتذّه كما ألدُّ رِيقِي

وقال أعرابي يرقصُ ولده:

أعرف منه قلة النُّعاس وخِفةً من رأسه في راسي

وقال عبد الملك: أضّر بنا في الولد حبنا له، فلم نُؤدبه، وكأن الوليد أدبنا.^٣

حبّ الأيامي واليتامي

من بديع أخبار الحَكَم: أن العباس الشاعر توجه إلى الثغر، فلما نزل بوادي الحجارة، سمع امرأة تقول: وا غوثاه بك يا حكم، لقد أهملتنا حتى كَلَبَ العدو علينا فأيمنا وأيتمنا. فسألها عن شأنها، فقالت: كنت مقبلَةً من البادية في رفقة، فخرجت علينا خيلُ عدوٍ فقتلت وأسرت، فصنع قصيدته التي أولها:

تملمت في وادي الحجارة مسندًا أراعي نجومًا ما يرين تغيرا
إليك أبا العاصي نصيت مطيتي نسير بهم ساريًا ومهجرا
تدارك نساء العالمين بنصرة فإنك أحرى أن تُغيث وتُنصرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة، ووصف له خوف الثغر، واستصراخ المرأة باسمه، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد، فخرج بعد ثلاثٍ إلى وادي الحجارة، ومعه الشاعر، وسأل عن الخيل التي أغارت من أي أرض العدو كانت؟ فأُعلِمَ بذلك، فغزا تلك الناحية، وأتخن فيها، وفتح الحصون والديار، وقتل من العدو عددًا كثيرًا، وجاء إلى الوادي فأمر بإحضار المرأة، وجميع من أسر له أحدٌ في تلك البلاد ثم أمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتهم، وقال للعباس: سلها هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة وكانت نبيلة: والله لقد شفى الصدور، وأنكى العدو، وأغاث المهوف، فأغاثه الله، وأعزَّ نصره.

فارتاح لقولها، وبدا السرور في وجهه وقال:

ألم تر يا عباس أني أحببتها على البعد أقتاد الخميس المظفرا
فأدركت أوطارًا وأبردت غلَّةً ونفست مكروبًا وأغنيت مُعسرا

فقبل عباس يده وقال: نعم، جزاك الله خيرًا عن المسلمين.

أمثال في الحب °

قول لسان الدين الخطيب:

أصناف المحبين والعشاق كثير، بحيث يشق إحصاؤهم، ولا يتأتى استقصاؤهم، كما
أورد أبياتًا من قصيدة أبي فراس الحمداني، التي يقول فيها:

تسألني: من أنت؟ وهي عليمَةٌ وهل بفتى مثلي على حاله نُكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى قتيلك، قالت: أيُّهم فهم أكثر؟

وفي هذا تنبه النفوس الصعبة، على حكم المحبة، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَى
مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ﴾. ثم قال المؤلف: «وهذه حكمٌ تجري مجرى الأمثال: المحبة بحرٌ بعيد الشط، والفناء
منتهى الخط، المحبة مهوى من بعيد، ومجالٌ وعدٍ ووعيد.
المحبة ظهرٌ لا يركبه من يرى الموت فيتنكبه، كم قصمت المحبة من ظهر، وكم سيرٌ
صوتٌ إلى قهر.

حجة بالغة

قال ابن السبكي رحمه الله تعالى:

قالت: ألا لا تلجن دارنا إن أبانا رجلٌ غاير
قلت: فإنني حاضرٌ ... زائرًا ولا يلام الزائر الحاضر
قالت: فإن الليث عادٍ بنا قلت: فسيفي مرهفٌ باتر

أنواع الحب

قالت: فإن القصرَ من دوننا قلت: فإنني فوقه طائر
قالت: فإن البحر من بيننا قلت: فإنني سابحٌ ماهر
قالت: فإن الله من فوقنا قلت: نعم، وهو لنا غافر
قالت: فَحَوْلِي إِخْوَةٌ سَبْعَةٌ قلت: فإنني لهم حانر
قالت: لقد أَعْيَيْتُنَا حُجَّةً فأت إذا ما هجع السامر
واسقُط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناهٍ ولا أمرُ

هوامش

- (١) في كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم.
- (٢) في العقد الفريد ج ١ ص ٢٧٧.
- (٣) يريد الوليد ابنه «الوليد بن عبد الملك».
- (٤) في نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢.
- (٥) في نفح الطيب ج ٢٩ أورد المؤلف قول لسان الدين الخطيب.

حب الأزواج

زواج النبي من خديجة

قال صاحب كتاب «سنا المهتدي»:

أهل السيرة مختلفون فيمن تولى تزويج السيدة خديجة (رضي الله عنها) لرسول الله ﷺ، فذكر ابن إسحاق أنه ﷺ مشى هو وعمه حمزة بن عبد المطلب إلى والدها خويلد بن أسد في ذلك. وذكر غير ابن إسحاق أن خويلد كان إذ ذاك قد هلك، وأن الذي أنكح خديجة هو عمها عمرو بن أسد. قال المبرد: وهو الذي خطب خطبة النكاح، وكان مما قال في تلك الخطبة: «أما بعد، فإن محمداً ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك». فقال عمرو: هو الفحل لا يقرع أنفه، فأنكحها منه، ويقال: قاله ورقة بن نوفل. والذي قاله المبرد هو الصحيح؛ لما رواه الطبري عن جبير بن مطعم، عن ابن عباس، وعن عائشة. قال: إن عمرو بن أسد هو الذي أنكح ابنة أخيه خديجة رسول الله ﷺ، وأن خويلداً هلك قبل ذلك.

وذكر الزهري أن رسول الله ﷺ قال لشريكه الذي كان يتجر معه في مال خديجة: هلمّ فلنتحدث عند خديجة، وكانت تكرمهما، فلما قاما من عندها، جاءت جويرية لها وقالت له: جئت خاطباً يا محمد؟ قال: كلا. فقالت: ولم؟ فو الله ما في قريش امرأة —

وإن كانت خديجة — إلا تراك كفوًا لها. فرجع رسول الله ﷺ خاطبًا لخديجة مستحيًا منها.

حب خديجة للنبي، وتقديره لها

لقد من الله على عباده المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾. وقد شاءت إرادة الله أن ينشأ سيدنا محمد ﷺ نشأة كريمة طاهرة، حتى عرف من حداثة سنه بالصدق والأمانة، والبعد عن صغائر الأمور، فاشتهر بالصادق الأمين. وقد سمعت خديجة وهي سيدة نساء العرب به، ورغبت في أن يتجر بمالها، فكان نعم التاجر الصدوق المؤمن، وربحت التجارة كثيرًا؛ لما اتصف به عليه الصلاة والسلام من خلق عظيم، وقلب رؤوف رحيم.

وكان يصحبه خادمها «ميسرة» الذي شاهد ما شاهد من طيب الخلال، والصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، وقص الخادم على سيده ذلك، ومن ثم أنست في سيدنا محمد صفات كمال الرجال، فعرضت عليه أن يتزوج بها، فوافق شاكراً راضياً، ولقد كان يخطبها أكبر سادة العرب وجلة ساستهم فلم ترض بواحدٍ منهم. وكانت على جانب عالٍ من السماحة وجمال الخلق والخلق معاً، وكان هو صلوات الله عليه وسلامه يبلغ الخامسة والعشرين، وتكبره بخمسة عشر ربيعاً. وصادف هذا الزواج المبارك، بل حاله التوفيق واليمن، فكانت نعم الزوجة الحبيبة الوفية الأمينة المخلصة.

وبينما كان يتحدث في غار ثور، نأياً عما كان عليه شباب العرب، حان ظهور جبريل عليه السلام لأول مرة، وقال له: اقرأ. فأجابه النبي: ما أنا بقارئ. فضمه إليه ثم أرسله، وأعاد عليه أخرى. وفي الثالثة: نزلت السورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وما لبث أن عاد النبي إلى زوجته يقول: «زملوني» وسرد عليها روايته، فهدأت روعه بعد أن اختبرت حالته، إذ خشيت عليه سوءاً فقالت: والله لن يخزيك الله أبداً؛ إنك تصل الرحم، وترحم الأرامل والأيتام، وتؤوي الضعفاء والمساكين. ثم رأت أخيراً أن تعرض أمره على ابن عمها ورقة بن نوفل، الكاهن ... فبشره بأن هذا هو الناموس الذي ينزل على أنبياء الله ورسله، وسيكون له شأن عظيم!

ولقد عاشرت خديجة رسول الله قبل الرسالة خمسة عشر عاماً، حتى بلغ الأربعين، معاشرة كلها الحب والوفاء، وعاش معها حياة العزة والكرامة والاطمئنان. وكم كانت ترفع من مكانته وهو الرفيع المكانة، فتقول: «كل شيء ملك محمد، ليس لي فيه شيء، فهو صاحب الأمر والنهي». ولبثت معه ثمانية وعشرين عاماً في أتم وأكمل ما يتصوره العقل الذكي، واللّب الحكيم، إلى أن اختارها الله لجواره، ولحقت بالرفيق الأعلى.

ولقد كانت أول من آمن به من النساء، وكم حزن عليها سيدنا محمد صلوات الله عليه حزناً شديداً، حتى ذكر عام وفاتها بعام الأحران، وما زال عليه الصلاة والسلام يذكرها بالخير والثناء بعد رحيلها، ولم يتزوج عليها قط. فما إن كان بمجلس مع عائشة الصديقة بنت الصديق وتذكر أن فلانة كانت حبيبة خديجة، حتى قال: أعطوها وأكرموها؛ فغارت عائشة قائلة: أو لم أكن يا رسول الله — أنا البكر — خيراً منها؛ فغضب وتغير وقال: والله يا عائشة، ما عادلها من النساء أحد، لقد أمدتني فقيراً، وأكرمتني معاشراً، وملأت عليّ أركان حياتي أنساً وسؤداً. قالت عائشة: وقد أقسمت بحقه وحبه ألا تذكرها إلا بخير.

خير متاع الدنيا المرأة الصالحة

قال ﷺ: «تزوجوا الولود الودود من النساء؛ فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». وقال أيضاً: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة». ونظر خالد بن صفوان إلى جماعة في مسجد البصرة فقال: أبغي امرأة. فقيل له: ما صفتها؟ قال: أريدها بكرًا كثيب، أو ثيبًا كبكر، حلوة من قريب، فخمة من بعيد، كانت في نعمة وأصابتها حاجة، ففيها أدب النعمة وذل الحاجة، إذا اجتمعنا كنا أهل دنيا، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة.

السيدة سكينة بنت الحسين

كانت سكينة بنت الحسين سيدة نساء عصرها، ومن أجمل النساء وأظرفهن أحسنهن أخلاقاً، وتزوجها مصعب بن الزبير فمات عنها، ثم تزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام، فولدت له قريناً، ثم تزوجها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان وفارقها قبل الدخول، ثم تزوجها زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، فأمره سليمان بن عبد الملك بطلاقها؛ لعدم قدرته على الوفاء بما عاهدها عليه من ألا

يدخل معها غيرها من النساء، فلم يسعه إلا الإذعان لأمر سليمان، ولاعتبار ضعف إرادته باتصاله بغيرها من الجواري صارت طالقاً، فطلقها.

وقد قيل في ترتيب أزواجها غير هذا، وقيل أيضاً إن الطُّرَّة السكينية منسوبة إليها. ولها نوادر وحكاياتٌ ظريفةٌ مع الشعراء وغيرهم، من ذلك ما يروى من أنها ناظرت عروة بن أذينة — من أعيان العلماء وكبار الصالحين، وله أشعار رائقة — فقالت له: أنت القائل:

إذا وجدتُ أوار الحب في كبدي زهبت نحو سقاء الماء أبترد
هبني بردت ببرد الماء ظاهره فمن لناٍ على الأحشاء تتقد؟

فقال لها: نعم. فقالت: وأنت القائل:

قالت وأبثثتها سري وبحت به قد كنت عندي تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولي؟ فقلت لها: غطى هোক وما ألقى على بصري

والسيدة سكينة ابنة الإمام أبي عبد الله الحسين، كانت أمها الرباب بنت امرئ القيس الكلبية. وقد تزوجها عبد الله بن الحسن — وهو أبو عذرتها — فمات — ويقال قتل مع الحسين — فتزوجها مصعب بن الزبير فولدت له ابنة فأرسل إليها: سميتها زبراء، قالت: أسميها باسم إحدى أمهاتي، فسمتها خديجة أو فاطمة، فماتت ابنتها من مصعب ورحل إلى العراق فقتل عنها.

وخطب سكينة عبد الله بن مروان، فقالت أمها: والله لا أزوجها منه أبداً وقد قتل ابن أخي — تعني مصعباً — فتزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام — وأم عبد الله بن عثمان رملة ابنة الزبير بن العوام — فولدت له سكينة ابناً يقال له قرين، وحكيماً، وابنة، ويقال ابنتين، فمات عنها، فتزوجها الأصعب بن عبد العزيز بن مروان فأصدقها صداقاً كثيراً، فقال عبد الملك: إنا تزوجنا أحسابنا فلم نغرق في الصداق، طلقها، فطلقها، فقال أيمن بن خريم:

نكحت سكينة في الحساب ثلاثة فإذا دخلت بها فأنت الرابع

إن البقيع إذا تتابع زرعه خاب البقيع وخاب فيه الزارع

فتزوجها زيد بن عمرو بن عثمان؛ فأصدقها صدقاً كثيراً، واشترطت عليه ألا يعصي لها أمراً ولا يغيرها، ولا يمنعا شيئاً تريده، ولا يمنع أحداً يدخل إليها، وأن يقيمها حيث رغبتها، فتزوجها على هذه الشروط، فقال له سليمان بن عبد الملك: يا زيد بن عمرو، إنك شرطت لسكينة ألا تطأ جارية، وعندك أمثال المها، وأنا أعلم أنك لا تصبر، وأنت قد وطئت بعضهن، وشرطت لها شروطاً لا تستطيع الوفاء بها، وقد حرمت عليك سكينة؛ فطلقها زيد، فتزوجها إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، فأبى أهلها أن يرضوا، فخاصموه وتحاكموا إلى إبراهيم بن هشام، فقال له: انطلق فادخل على أهلك، فإن حال بينك وبينها أحد فامنع، وكان إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف شرساً كثير الشر — لما أراد أن يتزوجها بعد أن مكثت حيناً بعد زيد لا تخطب — فقالت لها مولاتها: جعلت فداك، لا أرى أهل المدينة يذكروننا. فأجابتها: أما والله لأجعلن لهم حديثاً، وأرسلت إلى إبراهيم فقالت له: كيف أنت إن تزوجتك؟ قال: تجدينني خير الناس.

وكانت ظريفة عفيفة، وأديبة فصيحة، فوق ما امتازت به من إشراق المحيا، وسماحة الخلق، وملاحة الخلق، فقيل لها: يا سكينة، أختك ناسكة وأنت مزاحة؟ قالت: إنكم سميتموها باسم جدتها المؤمنة، وسميتموني باسم جدتي التي لم تدرك الإسلام.^٢ ولقد شبب الفرزدق بها، وكان عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) والياً على المدينة فأخرجه منها ونفاه، فقال جرير في ذلك:

نفاك الأغر ابن عبد العزيز بحقك تنفي من المسجد

وطافت سكينة بنت الحسين (رضي الله عنهما) فلما انتهت إلى الركن اليماني أعيت في أول طواف، ونظر إليها العرجي، فقال:

يقعدن في التطواف آونة
حتى استلمن الركن في أنفٍ
ويطفن أحياناً على فتر
من ليلهن يطأن في الأزر
ففرغن في سبعٍ وقد جهدت
أحشاؤهن موائل الخمر

فسمعت شعره امرأة ووصفته لها، فحفظت الشعر، وقالت: «لو أن الجمال طفن سبغاً لجهدت أحشاؤهن».

وكانت سكينه (رضي الله عنها) على جانب وافر من الخلال الطيبة فوق ما امتازت به من كريم المحتد، ودمائة الطبع والجمال.

عاتكة بنت زيد

كانت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل عند عبد الله بن أبي بكر بن أبي قحافة فأحبها، فكان ربما ترك الصلاة جماعة بسبب مكثه معها؛ لما اتصفت به من حسن الصورة، وسماحة الخلق، وكانت عبلة الجسم، مكتنزة اللحم، على قسط وافر من العلم والأدب، والمعرفة بالشعر؛ مما دعا عبد الله إلى الانشغال بها، فأمره أبو بكر (رضي الله عنه) بطلاقها قائلاً له: قد فتنتك عن دينك، وشغلتك عن معيشتك، فطلقها وقال:

ولم أر مثلي طلق اليوم مثلها	ولا مثلها في غير جرم تطلق
لها خلق سمحٌ ورأيٌ ومنصبٌ	وخلقٌ سوى في الحياء ومصدق
أعاتك، لا أنساك ما هبت الصبا	وما ناح قمري الحمام المطوق
أعاتك لا أنساك ما حج ركبٌ	وما لاح نجمٌ في السماء محلّق
أعاتك، قلبي كل يوم وليلة	إليك بما تخفي النفوس معلق
ولولا اتقاء الله في حق والدٍ	وطاعته ما كان منا التفرق

فبلغ أبا بكر شعره فأمره فراجعها، وكانت عنده حتى مات شهيداً، أصابه سهم في حصار الطائف فانتقض به جرحه فمات، فقال لعاتكة حين احتضرت: لك حديقة من مالي ولا تتزوجي؛ فقبلت ذلك، وقال حين راجعها:

أعاتك، قد طلقت عني بغصة	وراجعت للأمر الذي هو كائن
كذلك أمر الله غادٍ ورائحٌ	على الناس فيه ألفه وتباين
وقد كان قلبي للتفرق طائراً	وقلبي لما قد قرب الله ساكن
أعاتك إنني لا أرى فيك سقطة	وإنك قد حلت عليك المحاسن
وإنك مما زين الله أمره	وليس لما قد زين الله شائن

حب الأزواج

فمات عبد الله وترك سبعة دنانير، فقال أبو بكر: إنا لله، كيف يصبر ابني على سبع كيات،^٣ فلما مات عبد الله قالت عاتكة ترثيه:

فجعت بخير الناس بعد نبيهم وبعد أبي بكر، وما كان قصراً
فأليت لا تنفك عيني سخينةً عليك ولا ينفك جلدي أغبراً
مدى الدهر ما غنت حمامة أيكيةً وما طرد الليل الصباح المنوراً
فلله عيناً من رأى مثله فتى أكرراً وأحمى في الجهاد وأصبراً
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرأ

ثم ما لبثت أن خطبها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فقالت: إني قد جعلت على نفسي ما لا أقدر معه على التزويج. فقال: استفتي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) فاستفتته، فقال: ردي عليهم ما أخذته منهم وتزوجي، فردت الحديقة، فتزوجها عمر (رضي الله عنه) فلما دخل بها أولم، فدنا علي (رضي الله عنه) من خدرها وقال:

فأليت لا تنفك عيني سخينة عليك ولا ينفك جلدي أغبراً

فبكت، فقال عمر: ما أردت إلا أن تفسد علينا أهلنا.
ويقال: قال هذه المقالة عبد الرحمن بن أبي بكر، فلما قتل عمر قالت:

وفجعني فيروز لا درُّ درُّه بأبيض تالٍ للقران منيب
رؤوفٍ على الأدنى غليظٍ على العدا أخي ثقةً في النائبات نجيب
متى ما يقل لا يكذب القول فعله سريعٍ إلى الخيرات غير قطوب

وقالت:

عين جودي بعبرة ونحيب لا تملي على الإمام النجيب
فجعتني النون بالفارس المقف دم يوم الهياج والتذبيب^٤
عصمة الناس والمعين على الدهر سر وغيث المنتاب والمحروب
قل لأهل الضراء والبأس: موتوا قد سقته المنون كأس شعوب

فخطبها طلحة بن عبيد الله، فمشى في أمرها هبار بن الأسود، فأفسد عليه، فتزوجها الزبير بن العوام، فنهاها عن الخروج إلى المسجد، فقالت: أئنهاني عن الخروج إلى الصلاة وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تمنعوا إماء الله من مساجد الله»؛ فأعرض عن ذلك أياماً، ثم قعد لها في طريقها ليلاً، فلما مرت به ضرب عجيزتها بيده — وكانت عظيمة العجيزة جميلة — فرجعت إلى بيتها واسترجعت، وقالت: سوءةٌ إنا لله، وتركت الخروج، فقال لها الزبير: مالك تركت الصلاة في المسجد؟ فقالت: قد فسد الناس أبا عبد الله. فقتل عنها، فقالت:

غدر ابن جرموز بفارس بهمة يوم اللقاء وكان غير مُعَرَّد
يا عمرو لو نبهته لوجدته لا طائشاً رَعِشَ الجَنان ولا اليد
شلت يمينك إن قتلت لمُسلماً حلت عليك عقوبة المتعمد

ثم خطبها علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقالت: إني أشفق عليك من القتل، لم أتزوج رجلاً إلا قتل، فتزوجها محمد بن أبي بكر فخرجت معه إلى مصر، فقتل ومُتَّ به، فقالت:

لئن تقتلوا أو تمثلوا بمحمد فما كان من شأن النساء ولا الخمر

فتزوجها عمرو بن العاص.

وروي أن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) حدث مرة عن رسول الله ﷺ بقوله: «لا تمنعوا النساء من الخروج بالليل إلى المساجد»، فقال ابن له: لا تدعهن يخرجن فيتخذنه دغلاً، فزجره وقال له: أقول: قال رسول الله ﷺ ثم تقول: لا تدعهن؟! وذكر أبو بكر الخرائطي رحمه الله في كتاب «اعتلال القلوب» قال: كانت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل عند الزبير بن العوام (رضي الله عنهما) فاستأذنته في الخروج إلى المسجد، فشق عليه ذلك وكره أن يمنعه، فأذن لها، ثم انكمن لها في موضع مظلم من الطريق، فلما مرت عليه وضع يده على بعض جسدها، فكرت راجعة، وسبقها الزبير إلى الدار، فلما دخلت عليه تسبح، قال لها: ما رذك عن وجهك؟ قالت: كنا نخرج والناس ناس، وأما اليوم فلا، وتركت طلب المسجد.

زواج امرئ القيس

نقل الجرجاني في كتاب «الكنيات» عن كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، أن عبد الملك بن عمير قال: آل امرئ القيس بن حجر ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن «ثمانية وأربعة واثنين»، فجعل يخطب النساء، فإذا سألهن عن هذا قلن: أربعة عشر، فبينما هو في جوف الليل إذا هو برجل معه ابنة صغيرة له كأنها البدر لتمه، فأعجبته فقال لها: يا جارية، ما ثمانية وأربعة واثنان؟ قالت: أما ثمانية فأطباء الكلبة، وأما أربعة فأخلاف الناقة، وأما اثنان فتديا المرأة؛ فخطبها من أبيها، فزوجه إياها، وشرطت هي عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال، فأجابها موافقًا، وعلى أن يسوق إليها مئة من الإبل، وعشرة أهدى، وعشر وصائف، وثلاثة أفراس، ثم إنه أرسل عبده إلى المرأة فأهدى إليها نَحِيًّا من سمن، ونَحِيًّا من عسل، وحلة من قصب، فنزل العبد في بعض المياه فنشر الحلة فلبسها، ثم أتاها — وهي خلوف — فسألها عن أبيها وأمها وأخيها، ودفع إليها هديتها، فقالت له: أعلم مولاك أن أبي ذهب يقرب بعيدًا ويبعد قريبًا، وأن أمي ذهبت تشق النفس نفسين، وأن أخي يراعي الشمس، وأن سماءكم انشقت، وأن وعاءكم نضب؛ فقدم الغلام على مولاه فأخبره، فقال: أما قولها: ذهب يبعد قريبًا ويقرب بعيدًا، فإن أباه ذهب يخالف على قومه، وأما قولها: ذهبت تشق النفس نفسين، فإن أمها ذهبت تقابل نفسها، وأما قولها: أخي يراعي الشمس، فإن أخاها في صرح له يرعاه، وأما قولها: إن سماءكم انشقت، فإن البُرد الذي بعثت به انشقت، وقولها: إن وعاءكم نضب، فإن النُحيين اللذين بعثت بهما نقصا، فاصدقني، فقص عليه الغلام القصة.

ثم إن امرأ القيس ساق مئة من الإبل، وخرج نحوها ومعه الغلام، فقام الغلام يسقي الإبل، فعجز عنها، فأعانه امرئ القيس، فرمى به الغلام في البئر، وخرج حتى أهل المرأة بالإبل وأخبرهم أنه زوجها، فقيل لها: قد جاءك زوجك. فقالت: والله لا أدري أزوجي أم لا؟ ولكن انحروا له جزورًا وأطعموه من كرشها وذنبها، ففعلوا وأكل، ثم قالت: اسقوه لبنًا خائراً أي حامضاً؛ فشرب، فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم، فنام. فلما أصبحت أرسلت إليه: إني أريد أن أسألك. فقال: سليني عما شئت. فقالت: مم تختلج شفتاك؟ فقال: لتقبيلي إياك. قالت: فمم يختلج فخذاك؟ فقال: لتوركي إياك. قالت: عليكم فشدوه وثاقًا، ففعلوا.

واجتاز قوم بأمرئ القيس فأخرجوه من البئر، فرجع إلى حيه وساق مئة من الإبل، وأقبل إلى امرأته فقيل لها: قد جاء زوجك، فقالت: والله لا أدري أزوجي أم لا؟ ولكن انحروا

له جزورًا وأطعموه من كرشها وذنبها ففعلوا، فلما أتوه بذلك قال: فأين الكبد والسنام واللحي؟! وأبى أن يأكل. فقالت: اسقوه لبنًا خائرًا، فأتى به، فأبى أن يشربه، وقال: أين الضريب والريبة؟! فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم، فأبى أن ينام. وقال: افرشوا لي على القلعة الحمراء، واضربوا عليها خباء، ثم أرسلت إليه: هلم شرطتي عليك في المسائل الثلاث، فأرسل إليها: أن سلي عما شئت، فأرسلت إليه: مم تختلج شفتاك؟ قال: لشرب الشعشعات. قالت: فمم يختلج كشحك؟ قال: للبسي المحبرات. قالت: فمم يختلج فخذاك؟ قال: لركوبي المطهومات. قالت: هذا زوجي لعمرى فعليكم به، واقتلوا العبد، فقتلوه. ودخل امرؤ القيس بالجارية التي أحبها حين رآها، فأعجب بجمالها، وسألها، فكان جوابها شافيًا.

وكانت بذكائها جديرة بأن تكون قرينة محبوبة له.

ولاء أم عقبة لابن عمها غسان

كانت أم عقبة، وهي امرأة من بني يشكر عند ابن عم لها يقال له: غسان، ولما شعر بدنو أجله، أو قرب موته سألها عما تصنع بعده قائلاً:

أخبري بالذي تريدين بعدي والذي تضميرين يا أم عقبة
تحفظين من بعد موتي لما قد كان مني من حسن خلق وصحبه
أم تريدين ذا جمال ومال؟ وأنا في التراب في سجن غربه

فقالت: والله لا أجيئك بكذب، ولأجعلنه آخر حظي منك، وأنشدته:

قد سمعت الذي تقول وما قد يا ابن عمي تخاف من أم عقبة
أنا من أحفظ الوداد وأرعا هُ لما قد أوليت من حسن صحبه
سوف أبكيك ما حييت بنوح ومرات أقولها أو بندبهُ

فلما سمعها أنشأ يقول:

أنا والله واثق بك لكن احتياطاً أخاف غدر النساء

حب الأزواج

بعد موت الأزواج يا خير من عو شر، فارعي لي حق حسن الوفاء
إنني قد رجوت أن تحفظي العهد د، فكوني إذا متُّ عند الرجاء

زواج حاتم الطائي^٦

أخبرنا محمد بن الحسن بن دريد قال: أخبرنا عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، عن عمه، وأبو حاتم عن أبي عبيدة قال: كانت امرأة من العرب، ذات جمال وكمال، وحسب ومال، قد آلت أن لا تزوج نفسها إلا كريماً، ولئن خطبها لئيم لتجدعن أنفه، فتحامها الرجال، حتى انتدب لها زيد الخيل، وحاتم بن عبد الله، وأوس بن حارثة بن لام الطائيون، فارتحلوا إليها، فلما دخلوا عليها قالت: مرحباً بكم، ما كنتم زواراً، فما الذي جاء بكم؟ فقالوا: جئنا زواراً وخطاباً.

قالت: أكفء كرام؛ فأنزلتهم، وفرقت بينهم، وأسبغت لهم القرى، وزادت فيه. فلما كان اليوم الثاني بعثت بعض جواريتها متنكرة في زيِّ سائلة، تتعرض لهم، فدفع لها زيد وأوس شطر ما حمل إلى كل واحدٍ منهما، فلما صارت إلى رحل حاتم دفع إليها جميع ما حمل إليه. فلما كان اليوم الثالث، دخلوا عليها فقالت: ليصف كل واحدٍ منكم نفسه في شعره، فابتدر زيد وأنشأ يقول:

هلا سألت بني نبهان ما حسبي
وجاءت الخيل محمراً بوادرها
والخيلُ تعلم أنني كنت فارسها
هذا الثناء، فإن ترضي فراضيةً
عند الطعانِ إذا ما احمرَّت الحدق
بالماء يسفح عن لبائتها العلق
والجار يعلم أنني الوابلُ الغدق
أو تسخطي فإلى من تعطف العُنق

وقال أوس بن حارثة: إنك لتعلمين أنا أكرم أحساباً وأشهر أفعالاً من أن نصف أنفسنا لك، أنا الذي يقول فيه الشاعر:

ليقضي حاجتي فيمن قضاها
ولا لبس النعال ولا احتذاها
إلى أوس بن حارثة بن لامٍ
فما وطئ الحصا مثل ابن سعدة

وأنا الذي عَقَّتْ عقيقتَه فأعتقت عن كل شعرة منها نسمة، وأنشأ يقول:

فإن تنكحي ماوية الخير حاتمًا فما مثله فينا ولا في الأعاجم
فتى لا يزال الدهر أكبر همَّه فكاك أسير أو معونة غارم
وإن تنكحي زيدًا ففارس قومه إذا الحرب يومًا أقعدت كل قائم
وإن تنكحيني تنكحي غير فاجرٍ ولا جارِفٍ جرفَ العشيرة هادمٍ
ولا مُتقٍ يومًا إذا الحرب سمّرت بأنفسها نفسي كفعل الأشايم
وإن طارق الأضياف لاذ برحله وجدت ابن سُعدى للقرى غير عاتم^٧
فأي هدىً أهدى لك الله فاقبلي فإننا كرام من رؤوس الأكارم

وأنشأ حاتم يقول:

أماويّ قد طال التجنب والهجر وقد عذرتني في طلبكم العُذر
أماويّ إما مانعٌ فمبينٌ وإما عطاء لا ينهنهه الزجر
أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر
وقد علم الأقبام لو أن حاتمًا أراد ثراء المال كان له وفُرُّ

إلى أن أتى على القصيدة، وهي مشهورة. فقالت: أما أنت يا زيد، فقد وترت العرب، وبقاؤك مع الحرة قليل. وأما أنت يا أوس، فرجل ذو ضرائر، والصبر عليهن شديد. وأما أنت يا حاتم، فمرضئ الخلائق، محمود الشيم، كريم النفس، قد زوجتك نفسي.

حب سحيم لعائشة بنت طلحة

قال أبو الحسن علي المدائني:

تزوج سحيم بن حفص بعائشة ابنة طلحة عبد الرحمن بن أبي بكر، وهو أبو عذرتها، فولدت له أولادًا، منهم طلحة الذي يقول له الشاعر:

أيا طلحَ إن كنت أعطيتني جُمالية تستخف الضفارا
فما كان نفعك لي مرةً ولا مرتين ولكن مرارا

حب الأزواج

أبوك الذي بايع المصطفى وسار مع المهدي حيث سارا

وقال أيضًا عن سحيم: صارمت عائشة زوجها، وكان في خلقها زعارة، وكان يلقي منها البلاء، فقبل له: طلقها، فقال:

وإن فراقني أهل بيت أو دُهم لهم زلفَةٌ عندي لإحدى العُظائم
فكيف يصفو العيش من بعد بينهم وسخطهم يومًا ... عن الأنف خاطمي

وخطبها مصعب بن الزبير فقالت: إن تزوجته فهو على كظهر أُمي، ثم سألت أهل المدينة فقالوا: اعتقي رقبة وتزوّجيه، فتزوجها فأصدقها خمس مئة ألف، وأهدى لها خمس مئة ألف؛ فقال أنس بن أبي أنس بن زنيم:

تعطى الفتاة بألف ألف كاملٍ وتبيت سادات الجنود جياغًا
لو في أبي حفص أقول مقالتي وأبثه ما قد أرى لارتاغًا

فبلغ الشعْرُ عبد الله بن الزبير فقال: إن مصعبًا قدم خيره.
وقال أبو الحسن عن الشعبي: كان يجالسنا أيام الفتنة رجل فقلت: من أنت؟ قال: مولى عائشة بنت طلحة، خطبها مصعب بن الزبير وتزوجها فأحبها، وكانت امرأة جميلة في أذنها عِظْمٌ، وفي ساقها حموشة^٨. وقال قوم: في قدمها عِظْمٌ.
وروي عن الشعبي أنه قال: أخذ بيدي مصعب، فمضى وأنا معه حتى دخل منزله ويده في يدي، فرفع سترًا فإذا عائشة، وإذا هي أحسن الناس وجهًا، فأعرضت وخلاني ودخل، فرجعت، ثم رحت إليه بالعشي وهو جالس، فأشار إليّ بيده وقال: أرأيت ذاك الإنسان؟ قلت: نعم. فقال: أفرأيت مثله؟ فقلت: لا. قال: تلك ليلي التي يقول فيها الشاعر:

وما زلت من ليلي لذن طرّ شاربي إلى اليوم أخفي حبها فأباين^٩
وأحمل في ليلي لقلبي ضغينةً وتحمل في ليلي عليّ الضغائن

يا شعبي: رأيت عائشة وما يدلك إذ رأيتها من صلة، ثم قال لابن أبي فروة: أعط الشعبي عشرة آلاف درهم وعشرين ثوبًا، فقتل عنها مصعب، وأنبأ الحسن قال: قال سلم بن قتيبة: رأيت عائشة بنت طلحة بمكة في المسجد، فسلمت عليها، وانتسبت لها،

فبكت وقالت: يرحم الله مصعب، ثم أرادت النهوض، فأخذت امرأتان بيديها — وعندها نسوة — فاعتمدت على المرأتين، فما كادت أن تستقل حتى خذلها وركاها، فقالت إحدى المرأتين: إنا بك لمتعبات، وكانت مديدة الجسم، مكتنزة اللحم، على نصيب وافر من حسن الصورة وإشراقها.

الثريا وعمر بن أبي ربيعة^{١٠}

حدثنا الزبير بن بكار، عن مَسَلَمَةَ المخزومي عن أيوب: أن عمر بن أبي ربيعة كان متعلقًا بالثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وكانت أهل ذلك جمالًا وتمامًا، وكانت تصيف بالطائف، وكان عمر يغدو عليها على فرسه، فيسأل الركبان الذين يحملون الفاكهة من الطائف عن الأخبار، فلقي يومًا بعضهم فسأله عن أخبارهم، فقال: ما استطرقتنا خيرًا، إلا أنني سمعت عند رحيلنا صوتًا وصياحًا عاليًا على امرأة من قريش نسيت اسمها، ولعله نجم في السماء. فقال عمر: الثريا؟ قال: نعم.

وكان عمر قبل ذلك قد بلغه أنها عليلة، فوجه فرسه إلى الطائف يركضه، وسلك أخشن الطرق وأقربها، حتى انتهى إلى الثريا، وقد توقعته وهي تتشوق له فوجدها سليمة ومعها أختها: رضية، وأم عثمان، فأخبرها الخبر، فضحكت وقالت: أنا أمرتهم لأختبر ما لي عندك، فقال عمر في ذلك هذا الشعر:

تشكى الكميت الجوى لما جهده	وبين لو يستطيع أن يتكلما
فقلت له: إن ألق للعين قرّة	فهان عليّ أن تكلّ وتسأما
لذلك أدنى دون خيلي رباطه	وأوصى به ألا يهان ويكرما
عدمت إذن وفري وفارقت مهجتي	لئن لم أقل قرنًا إن الله سلّما

فقال مسلمة بن إبراهيم: قلت لأيوب بن مسلمة: أكانت الثريا كما يصف عمر ابن أبي ربيعة؟ فقال: وفوق الصفة، كانت والله كما قال عبد الله بن قيس:

حبذا الحج والثريا ومن بالـ	خيف من أهلها وما في الرجال
يا سليمان إن تلاق الثريا	تلق عيش الخلود قبل الهلال
درة من عقائل البحر بكر	لم يشنها مثاقبٌ للآلي

حب الأزواج

تعقد المئزر السخام من الحرّ على حقو بادن مكسالٍ

وحدثنا عمر بن شبة قال: أخبرنا محمد بن يحيى قال: زعم عبيد بن يعلى قال: حدثني كُثَيْرُ بن كُثَيْرِ السهمي قال: لما ماتت الثريا، أتاني الغريض فقال لي: قل أبيات شعر أنح فيها على الثريا، فقلت:

ألا يا عين مالك تدمعينا أمن رمدٍ بكيت فتكحلينا؟
أم أنت حزينه تبكين شجواً فشجوك مثله أبكي العيون!

أبو الأسود الدؤلي وامرأته وابنهما

قال صاحب «سنة المهدي»:

تنازع أبو الأسود الدؤلي وامرأته في ابن لهما، وترافعا إلى زياد — وأراد كل أخذه — فقالت المرأة: أصلح الله الأمير، هذا ابني، كان بطني وعاءه، وحجري فناءه، وثديي سقاءه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام، حتى استوفى فصاله، وكملت خصاله، واستوكعت أوصاله، وأمّلت نفعه، ورجوت دفعه، أراد أن يأخذه مني كرهاً، فأنصفتني فقد أراد قهري، وحاول قسري.

فقال أبو الأسود: حملته قبل أن تحمله، ووضعتة قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في تقويم أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله، ويستكمل نُبله.

فقالت المرأة: صدق أصلحك الله؛ حملة خفاً، وحملته ثقلاً، ووضعه شهوةً، ووضعتة كرهاً.

فقال زياد: اردد على المرأة ولدها فهي أحق به منك، ودعنا من سجعك.

المجرد والمرأة التي تبعها

قال ابن وهب: تبعت جارية إلى منزلها، طامعاً فيها، فسقتني نبيذاً وغنت على عودها بصوتٍ ما سمعت أعذب منه، ولا أنفذ إلى القلب:

كأني بالمجرد قد علته ... نعال القوم أو خُشبُ السواري

فقلت لها: جُعِلت فداءك، لم أفهم هذا الشعر، ولا أحسبه مما يغنى به. قالت: أنا أول من تغنى به، وإنما هو بيتٌ لا يدرى قائله ومعه بيتٌ آخر.
قلت: سرّيني بأن تغنيّ لعلي أفهم. قالت: ليس هذا وقته، هو آخر ما أتغنى به.
قال: وجعلتُ لا أنازعها شيئاً إجلالاً لها وإعظاماً، فلما أمسينا وجاءت العشاء الأخيرة، وضعت عودها، فقامت فصليت وما أدري كم صليت عجلةً وتشوقاً، فلما سلمت، قلت: تأذنين لي — جعلت فداءك — في الدنو منك؟

قالت: هذا لك، ولكن بعد أن يتجرد كل منا، ثم ذهبت كأنها تريد أن تخلع ثيابها، فكدت أن أشق ثيابي من العجلة للخروج منها، ولما قامت بين يديها متجرداً. قالت: انته إلى زاوية البيت، وأقبل إليّ مقبلاً ومدبراً. قال: وبيننا أنا في طريقي إلى الزاوية، أردت اجتياز حصير في الغرفة، فما كدت أن أستقرّ فوقه حتى هبط بي في خرق تحته، وإذا أنا في السوق مجرداً، وإذا شيخان هناك قد كمنّا في ناحية، وأعداً نعالهما، فلما هبطت عليهما بادراني فقطعا نعالهما على قفائي، وجاء أهل السوق، فشاركوهم في ضربي حتى أنسيت اسمي، وبينما أنا أُخبطُ بنعالٍ مخصوفةٍ، وأيدٍ ثقّالٍ، وخُشبٍ دقاقٍ، إذا صوتٌ من فوق البيت يغني:

كأني بالمجرد قد علته نعال القوم أو خشبُ السواري
ولو علم المجرد ما أردنا لبادرنا المجرد في الصحاري

هوامش

- (١) ابن خلكان ج ١.
- (٢) أختها فاطمة بنت الحسين، سميت باسم جدتها فاطمة الزهراء، وسميت سكينه بنت الحسين باسم أمنة جدتها أم الرسول صلوات الله وأزكى سلامه عليه.
- (٣) يعني بذلك جزاءه على ما اكتنز من الدنانير ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ...﴾.
- (٤) إكثار الذب والدفع، وفي الأغاني التلييب.
- (٥) يقال: مثل به يمثل مثلاً، مثل: قتل يقتل قتلاً، ومثل به تمثيلاً: إذا نكل به.
- (٦) في أمالي الزجاجي.
- (٧) أي غير مبطىء.
- (٨) الحموشة: الدقة.
- (٩) البيتان لكثير عزة كما في الأغاني (١٣٢:٢) وروايته: «وأداجن».
- (١٠) في الأغاني ج ١.

الشعراء العشاق

جميل بئينة^١

إنه لمعلوم أن بئينة محبوبية جميل قائد الشعر، وقد نسب بعض الشعراء بنساء مخصوصة، واشتهر كل واحد منهم بمن تغزل بها، فاشتهر جميل ببئينة، واشتهر كثير بعزة، وعروة بن حزام بعفراء، وقيس مجنون بني عامر بليلى، وقيس بن ذريح بلبنى، والمرقس بفاطمة، وذو الرمة بمية وهي الخرقاء، والعباس بن الأحنف بفوز. وبعض الشعراء لا يلتزم التغزل بامرأة مخصوصة كامرئ القيس. وبئينة مصغر بئنة — قال صاحب الصحاح: البئنة — بالتسكين: الأرض اللينة، وبتصغيرها سميت: بئينة.

أما قصة جميل بن معمر العذري، فقد روى صاحب «الأغاني» بسنده، قال: اجتمع جميل مع جماعة من رهطه يتحدثون، فقال بعضهم: بالله حدثنا بأعجب يوم لك مع بئينة. قال: نعم، مُنعتُ من لقائي مدة، وتعرضت لها جهدي، فلم أصل إليها، فبينما أنا ذات ليلة جالس بين شجرات بالقرب من حيفا، وقد أقمت ثلاثاً أنتظرها، إذا شخص قد أقبل إليّ، فجلست وانتضيت سيفي، فلم ألبث أن غشيني الشخص، فإذا هي بئينة قد أكبت عليّ؛ فأدهشني ذلك، وبقيت متحيراً لا أحيِر جواباً إليها، ولا أراجعها كلمة حتى برق الصبح، وما استطعت أن أكلمها.

قالوا: فهل قلت في ذلك شيئاً؟ فأنشدهم قصيدة طويلة، وهذه أبيات من أولها:

أهاجك أم لا بالتناضب مربع ورسّم بأحراج الغديرين، بلقع
ديارٌ لليلي^٢ ... إذ نحلُّ بها معاً وإذ نحن منها في المودة نطمع

فيارب حببني إليها، وأعطني الـ
وإلا ... فصبرني وإن كنت كارهاً
فإن يك قد شطت نواها وقد نأت
جزعت غداة البين لما تحمّلوا
تمتعت منها يوم بانوا بنظرة
مودة منها، أنت تعطي وتمنع
فإنني بها يا ذا المعارج مولى
فإن القوى مما تُشْت وتجمع
وما كان مثلي يا بثينة يجزع
وهل عاشق من نظرة يتمتع؟

وروى صاحب الأغاني عن الهيثم أن جميلاً طال مقامه بالشام، ثم قدم وبلغ بُثينة خبره، فراسلته مع بعض نساء الحي، تذكر شوقها إليه، ووجدتها به، وواعده لموضع يلتقيان فيه، فصار إليها، وحادثها طويلاً، وأخبرها بحاله بعدها.
قال: وقد كان أهلها رصدوها، فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليها، فوثب جميل فسل سيفه وشدّ عليهما، فاتقياه بالهرب، وناشدته بثينة بالانصراف وقالت: إن أقمت فضحتني، ولعل الحي أن يلحقوك، فأبى وقال: أنا مقيم، وامضي أنت وليصنعوا ما أحبوا، فلم تزل تناشده حتى انصرف، وقد هجرته مدةً طويلةً ولم تلقه، فقال هذه الأبيات الستة:

بمختلف الأرواح بين سويقة
أضرت بها النكباء^٥ كل عشية
وقفت بها حتى تحلت عمائتي^٦
وقال خليلي: إن ذا لصبابة
تعز وإن كانت عليك كريمة
فقلت له: إن البعاد يشوقني
وأحذب^٣ كادت بعد عهدك تخلق^٤
ونفح الصبا^٦ والوايل^٧ المتبعق^٨
ومل الوقوف الأرحبي^{١٠} المنوق^{١١}
ألا تزجر القلب للجوج فيلحق
لعلك من أسباب^{١٢} بثنة تعتق
وبعض بعاد البين والنأي أشوق

كثير عزة

من «بلاغات النساء»^{١٣} ما حدثنيه الزبير بن بكار، قال: حدثني سليمان بن عباس السعدي قال: كان كثير بن عبد الرحمن يلقي من يحج من قريش في كل سنة بهدية، فغفل سنة عنهم، حتى أصبح يوماً فركب من منزله بكلبة جملاً، واستقبل الشمس في يوم صائف، فلم يأت قديداً حتى احترق وضجر، وجاء وقد راح الناس، إلا فتى من قريش تخلف ومعه راحلة له، على أن يلحق بهم.

قال الفتى القرشي: فإني لجالس إذ أقبل كثير فجلس إلى جنبي ولم يسلم، ثم جاءت امرأة جميلةً وسيميةً، فاستندت إلى خيمةٍ من خيامٍ قديد، ثم قالت له: أنت كثير بن أبي جمعة؟ قال: نعم. قالت: أنت الذي تقول:

وكنت إذا ما جئتُ أجلن مجلسي وأعرضن عني هيباً لا تجهما

قال: نعم. فتأملت وجهه مبتسمةً وقالت: أعلى مثل هذا الوجه هيبه؟ إن كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فقال لها: كثير: من أنت؟ واحد عليها وهي ساكتة، ثم قال لها: لو أعلم من أنت لقطعتك وقطعت قومك هجاء. فلما سكن، قالت له: أأنت الذي تقول:

متى تنتشروا عني العمامة تبصروا جميل المحيا أغفلته الدواهن؟

أنت جميل المحيا؟! إن كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فضجر كثير، وسكتت عنه حتى سكن. ثم قالت: أنت الذي يقول:

يروق العيون الناظرات كأنه هرقلي وزنٍ أحمر التبرِ وازن

أهذا الوجه يروق العيون؟ إن كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فازداد ضجرًا، وقال: قد أعلم من أنت، ولأقطعنك وقومك، وقام، فالتفت فإذا هي قد ذهبت.

قال القرشي: فلما كان منصرفي من قديد، سألت مولاة هناك عن تلك المرأة، وقلت لها: لك عليّ إن أخبرتني من هي أن أطوي لك ثوبي هذين إذا قضيت إرامي، وأتيك بهما فأدفعهما إليك. قالت: والله لو أعطيتني وزنهما ذهبًا ما أخبرتك من هي. هذا كثيرٌ — وهو مولاي — قد أبيت أن أخبره من هي. قال القرشي: فرحت وبني أشد مما بكثير!

عمر بن أبي ربيعة

كان عمر بن أبي ربيعة^{١٤} معروفاً بشغفه حباً في النساء، وعشفاً لمحاسنهن، والتشبيب بمن يهواها، وهذه أبيات له:

وكادت توالي نجمه تنغور
هبوب ولكن موعد لك عزور
وأيقاظهم قالت: أشر كيف تأمر؟
وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
علينا، وتصديقاً لما كان يؤثر
من الأمر أدنى للخفاء وأستر
وما لي من أن تعلمنا متأخر
وأن ترحبا صدرًا بما كنت أحصر
أتى زائراً والأمر للأمر يقدر
أقلي عليك اللوم فالخطبُ أيسر
فلا سرُّنا يفشو ولا هو يبصر
ثلاث شخوص: كأعيان ومعصر

فلما تقضى الليل إلا أقله
أشارت بأن الحي قد حان منهم
فلما رأته من قد تنبه منهم
فقلت: أباديهم فإما أفوتهم
فقلت: أتحقيقاً لما قال كاشحُ
فإن كان ما لا بد منه فغيره
أقص على أختي بدء حديثنا
لعلهما أن تبغيا لك مخرجاً
فقلت لأختيها: أعينا على فتى
فأقبلتا، فارتاعتا ... ثم قالتا:
يقوم فيمشي بيننا متنكراً
فكان مجنيّ دون من كنت أتقي

من شعر أمية بن الصلت في الغزل

قال أمية بن أبي الصلت من قصيدة له من «الطويل»:

وآذن أصحابي غداً بقفولٍ
وشاقتك أم الصلت بعد زهول
تمثل لي ليلي بكل سبيل
تعلم بها العينان بعد نهول
فقلت: نعم، ليلي أضل خليل
وإن سئلت عرفاً فشرُّ مسول

ألا حياً ليلي أجد رحيلي
تبدت له ليلي ليذهب عقله
أريد لأنسى ذكرها وكأنما
إذا ذكرت ليلي تغشتك عبرة
وكم من خليلٍ قال لي: هل سألتها؟
وأبعده ليلاً، وأوشكه قلى

لقد كذب الواشون ما بحت عددهم
 فإن حاول الواشون عني بكذبة
 فلا تعجلي يا ليل أن تتفهمني
 فإن تبذلي لي منك يوماً مودة
 وإن تبخلي يا ليل عني فإنني
 ولست براض من خليلي بنائلٍ
 وليس خليلي بالملول، ولا الذي
 ولكن خليلي من يديم وصاله
 ولم أر من ليلى نوالاً أعدده
 يلومك في ليلى وعقلك عندها
 يقولون: ودّع عنك ليلى ولا تهّم
 فما انتفعت نفسي بما أمروا به
 وقالوا: نأت فاختر من الصبر والبكا
 توليت محزوناً وقلت لصاحبي:
 لقد أكثر الواشون فينا وفيكم
 وما زلت من ليلى لدن طرّ شاربي

بليلى، ولا أرسلتهم برسول
 فروها، ولم يأتوا لها بحويل
 بنصح أتى الواشون أم بحُبول
 فقدما تخذت الفرض عند بذول
 تُوَكِّلني نفسي بكل بخيل
 قليل، ولا أَرْضى له بقليل
 إذا غبت عنه باعني بخليل
 ويحفظ سري عند كل دخيل
 ألا ربما طالبت غير منيل
 رجال، ولم تذهب لهم بعقول
 بقاطعة الأقران ذات خليل
 ولا عجبت من أقوالهم بفتيل
 فقلت: البكا أشقى إذن لغيلي
 أقاتلتي ليلى بغير قتيل؟!
 ومال بنا الواشون كل مميل
 إلى اليوم كالمُقصى بكل سبيل

حب امرئ القيس

من بين جبال اليمن السعيدة — وقد اشتهرت بخصب أرضها — جبل يقال له: ضارج ... وهو جبل معروف يعلو سفحه نبات أخضر يسمى «العرمض»، ويعلو الماء فيه مكان مرتفع يقال له «طامي»، ويقال له أيضاً: ثور الماء، لتفجر ثورانه من بين صخور وأحجار.

وقد ذكر البكري أن ركبا من اليمن خرجوا يريدون رسول الله ﷺ فأصابهم ظمأ شديد كاد يقطع أعناقهم، فلما أتوا «ضارجاً» وهو ذلك الجبل الذي يفىء عليه الظل وارفًا جميلاً من نبات العرمض، بخضرتة اليانعة، ورائحته الطيبة ... ذكر أحدهم قول امرئ القيس:

ولما رأَت أن الشريعة همها وأن البياض من فرائضها دامي
تيممت العين^{١٥} التي عند «ضارج» يفيء عليه الظل عررضها طامي^{١٦}

وإنه لخبر عجيب — سقناه — على أثر من آثار الطبيعة التي أبدع الله صنعها.

ذو الرمة ومية

اشتهر ذو الرمة بحب خرقاء، ولقبت: مية. ومما يؤثر عنه أنه يخاطب نفسه — في قصيدة طويلة كلها غزل ونسيب — فيقول:

إذا قلت ودّع وصل خرقاء واجتنب زيارتها تخلق حبال الوسائل
وأهله ودّ قد تبريت ودهم وأبليتهم في الحمد جهدي ونائلي

توبة وليلى الأخيلية

أخبرنا أبو الحسن علي بن سليمان، وأبو إسحاق الزجاج، عن أبي العباس محمد بن يزيد المبرد قال: ثبتت الروايات والأخبار أن «ليلي الأخيلية»^{١٧} لم تكن امرأة توبة بن الحمير ولا أخته، ولا كان بينهما نسب شابك، إلا أنهما كانا جميعاً من بني عقيل بن كعب بن ربيع بن عامر بن صعصعة، وكان يحبها وتحبه، فأقاما على حب عفيفٍ دهرًا، وتلك هي السنة في عشاق بني عذرة وغيرهم، إلى أن قتل توبة، وكان سبب قتله أنه كان يطلبه بنو عوف فأحسوا قدومه من سفره، فأتوه طروقًا، وبينه وبين الحي مسيرة ليلة، ومعه أخوه «عبد الله»، ومولاه «قابض»، فهرب وأسلماه، ففي ذلك تقول «ليلي»:

دعا قابضًا والمرهفات تنوشه فقبحت مدعوًا، ولبيت داعيا
فيا ليت عبد الله حلّ مكانه فأودى، ولم أسمع لتوبة ناعيا

ومن جيد ما تراثه به قولها:

فأقسمت، أبكي بعد توبة هالكا
لعمرك ما بالموت عار على الفتى
فلا الحيُّ مما يحدث الدهر سالم
وكل شباب أو جديد إلى بلى
فلا يبعدنك الله توبة هالكا
وأقسمت لا أنفك أبكيك ما دعت
قتيل بني عوف فيا لهفتا له
وأحفل من دارت عليه الدوائر
إذا لم تصبه في الحياة المغاير
ولا الميت إن لم يصبر الحي ناشر
وكل امرئ يوماً إلى الله صائر
أخا الحرب إذ دارت عليه الدوائر
على غصن ورقاء أو طار طائر
وما كنت إياهم عليه أحاذر

قال أبو القاسم رحمه الله: قولها: «أقسمت أبكي بعد توبة هالكا»، أي: لا أبكي بعد توبة هالكا. والعرب تضرع «لا» في القسم مع المعنى — لأن الفرق بينه وبين الموجب قد وقع بلزوم الموجب اللام والنون — كقولك: والله لأخرجن، وقال الله عز وجل: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذُكُرُ يُوسُفَ﴾، أي: لا تفتأ تذكر يوسف. وقولها: «ولا الميت إن لم يصبر الحي ناشر» يقال: نشر الله الموتى فنشروا، أي أحياهم فحيوا.
قال الشاعر:

لو أسندت ميتاً إلى نحرها
عاش ولم ينقل إلى القابر
حتى يقول الناس مما رأوا
يا عجباً للميت الناشر

ومن أغرب ما روي في (الصدى) ما رواه أبو علي من أن ليلي الأخيلية مرت مع زوجها في بعض نجعهم بالموضع الذي فيه قبر توبة، وكانت متزوجة في بني الألكح بن عبادة بن عقيل، فقال لها زوجها: لا بد أن أعرج بك إلى قبر توبة كي تسلمي عليه؛ حتى أرى هل يجيب صداه — كما زعم — حيث يقول:

ولو أن ليلي الأخيلية سلمت
علي، ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة ... أو زقا
إليها صدى من جانب القبر صائح

فقال له: وما تريد من رمّة وأحجار؟! فقال: لا بد من ذلك، فعدل بها عن الطريق إلى القبر، وذلك في يوم قائظ، فلما دنت راحلتها من القبر، ورفعت صوتها بالسلام عليه،

إذا بطائر قد استظل بحجارة القبر من فيح الهاجرة، فطار، فنفرت راحلتها ووقعت،
فماتت!

وفي هذا الخبر ما يحقق ويصدق أن: البلاء موكل بالنطق. كما يروى أن أحد
المولعين بالخمير قال:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروي عظامي في الممات عروقتها
ولا تدفنوني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

وبعد حين من ذلك، مات ذلك المولع بالخمير، وزار قبره ذاكرًا له فإذا هو عليه
عريش، فتعجب من ذلك!

عبيد الله بن طاهر وجاريتته

أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج — قال: أخبرنا أبو العباس المبرد قال:
دخلت على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر — وقد فصد فظننت أن ذلك لعة، فأكثر
له من الدعاء، فقال: خفّض عليك أبا العباس، فليس ذلك لعة، وانظر ما تحت البساط،
فنظرت فإذا رقعة فيها:

حلف الظريف بقطعه يده إن مسّ من يهواه بالألم
حتى إذا ضاق الفضاء به جعل الفصاد تحلة القسم

قلت: حسن أيها الأمير، فما سببه؟ قال: مددت البارحة يدي إلى إحدى الجواري
بالضرب، فألمت لما نالها من الألم، فحلفت بقطع يدي، فأفتيت بالفصد، ففعلت، وأنشدنا
الأخفش لأبي نواس:

ما بال قلبك لا يقر خفوقا وأراك ترعى النجم والعيوقا
وجفون عينك قد نشرن من البكا فوق المدامع لؤلؤا وعقيقا
لو لم يكن إنسان عينك سابقا فى بحر دمعته لمات غريقا

بحر هوى ليس له شطّ

أخبرنا أبو بكر محمد بن دريد قال: أخبرنا أبو حاتم عن الأصمعي قال: دخل بعض الشعراء على يحيى بن خالد البرمكيّ، وبين يديه جارية يقال لها: خنساء، وكانت شاعرة ظريفة، فقال له: اعبث بها، فأنشأ يقول:

خنساءً خنساءً وحتى متى يرتفع الناس وتنحط
قد صرت نضوا فوق فرش الهوى كأنني من دقتي خيط

فقال خنساء:

وكيف منجاي وقد حلّ بي بحر هوى ليس له شط
يدركك الوصل فتنجو به أو يقع الهجر فتنحط

حب زينب بنت إسحاق النصراني

من فوائد الرضيّ الشاطبيّ المذكور، ما ذكره أبو حيان في الحب قال: وهو من غريب ما أنشدنا الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف الأنصاري الشاطبي لزينب بنت إسحاق النصراني:

عديّ وتيم لا أحاول ذكرهم بسوء ولكني محب لهاشم
وما يعتريني في عليّ ورهطه إذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون: ما بال نصارى تحبهم وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم: إنني لأحسب حبهم سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

التائب من الحب

قال الحجازي: ١٨ قال عبد الوارث: كان فيمن يقرأ عليّ مملوك مليح الوجه، رضي الخلق، حاد الذكاء. فخلوت به يوماً، وداعبته بعبارات تنبئ عن شدة شغفي به، فقال لي: حذار أن تعود لمثل هذا الكلام، فللجدران آذان، ورب عثرة لسان أودت بإنسان ... ولكن إذا لم تستطع الكتمان، فاكتب لي ما تحب أن تقوله في ورقة فتكون في أمان واطمئنان. قال: فلما سمعت ذلك منه تمكن الطمع مني، وكتبت في ورقة:

يا من له حسن يفوق به الورى صلُّ هائماً قد ظل فيك محيرا
وامنن علي بساعة في خلوة إن كنت تطمع في الهوى أن تؤجرا

وكتبت تحت البيتين كلاماً كثيراً في هذا المعنى، ثم دفعت إليه الورقة خلسة. فلما حصلت الورقة عنده كتب إليّ في غيرها: إنك لتعلم أنني من بيت عريق في التقوى، وسأبقي عندي خطك شاهداً على ما فرط منك، ولئن لم تنته لأطلعن عليها أبي وغيره؛ فتصيبك فضيحة الأبد.

أما إن انتهيت فلن أخبر بها أحداً أبداً. فلما وقفت على خطه علمت قدر ما وقعت فيه، وجعلت أرغب إليه في أن يرُدَّ الرقعة إليّ، فأبى وقال: هي عندي رهن على وفائك بالأ ترفع إلى التكلم في ذلك الشأن. ولم يسعني إلا أن امتثلت؛ لأنني رأيت صيانتني وناموسي في يده، وتبت عن مثل هذه المداعبات.

هوامش

- (١) في خزنة الأدب ج ٣.
- (٢) لا يخفى أن جميلاً ينسب ببثينة. وإنما ذكرها باسم ليل جرياً على عادة الشعراء في إخفاء أسماء معشوقاتهم أحياناً.
- (٣) سويقة وأحدب: موضعان.
- (٤) تخلق: تبلى، يقال خلق الثوب وأخلق.
- (٥) النكباء: كل ريح تهب بين مهب ريحين لأنها نكبت عن مهبتها أي عدلت.
- (٦) نفح الصبا: النسيم العليل

الشعراء العشاق

- (٧) الوايل: المطر العظيم.
(٨) المتبعق: المطر العظيم.
(٩) عمائتي: بفتح العين من العماية، هي من عمى القلب.
(١٠) الأرحبي: الجمل النجيب منسوب إلى أرحب وهي قبيلة، وقيل فحل، وقيل موضع.
(١١) المنوق: المذلل كالناقة.
(١٢) وقوله: لعلك من أسباب بثنة. روي بدله: لعلك من رق لبثنة ...
(١٣) في إرشاد الأديب ص ١٣٧.
(١٤) في خزنة الأدب ج ٣.
(١٥) إشارة إلى الماء.
(١٦) الطامي: المرتفع الذي يعلو نباته الماء.
(١٧) في أمالي أبي القاسم الزجاجي ص ٥٠.
(١٨) في نفح الطيب ج ٢ ص ٩٥٢.

الحب والجمال

حب امتداح النساء

كان أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي من الشعراء المطبوعين على حب امتداح من يراه من النساء، عن براءة في القصد، تحمل في طياتها روحًا لا تؤمن إلا بالواقع، مهما يكلفه ما قصد إليه، دون أن يقيم لذلك وزنًا في استجلاب مرضاة أحدٍ، ومهما يعترضه من خصوم أو لائمين، فمن وسائط قلائده:

دمعان في الأجفان يزدحمان
بموذعين، وليس لي قلبان
مضت الشبيبة والحبيبة فالتقى
ما أنصفتني الحادثات رمينني

وقوله من أخرى:

قلت للعين حين شامت جمالاً
لا يغرنك هذه الأوجه الغرُّ
من بروق كواذب الإيماض
فيارب حية في رياض

وقوله من أخرى أيضاً:

خليليَّ عهدي بالليالي صوافيا
ولا تحسب عيشي علي فإنني
ولست أحب الضوء إلا لوجهها
ولو أنني أنصفتها ورعيَّتها
فما بالها أبدلن جيماً بصادها؟
أورِّخ يوم الموت يوم افتقادها
ولا البدر إلا طالعاً من بلادها
لسار فؤادي في طريق فؤادها

خليبي هل أبصرتما مثل أدمعي نفدت وحق الله قبل نفاها

وقال بعض الحكماء: ما أنس الإنسان، ولا عمّر المكان، ولا سلى الأحران، ولا أعان على الزمان مثل البيض العوان.

وفي كتاب مسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

وفي كتاب «الأربعين» للثقفى عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سئل النبي ﷺ: أي النساء خير؟ فقال: التي تسره إذا نظر، ولا تعصيه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره من نفسها، ولا ماله.

وفي «الشهاب»: «النظر إلى المرأة الحسناء يزيد في البصر»، والله در أبي نواس إذ يقول:

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

وقال شاعر آخر:

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

وقال غيره:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ جاءت محاسنه بألف شفيع

أعرابي يصف امرأة

قال العتبي: ^١ سمعت أعرابياً يصف امرأة فقال: بيضاء جعدة، لا يمس الثوب منها إلا مشاشة كتفيها، وحلمة ثديها، ورضفي ركبتيها، وجانبي أليتيها، وأنشد:

أبت الروادف والثدي لقمصها مسّ البطون وأن تمس ظهورا

وإذا الرياح مع العشي تناوحت نبهن حاسدة، وهجن غيورا

وقال آخر: ليت فلانة حظي من أملي، ولرب يوم سرته إليها حتى قبض الليل بصري
دونها، وإن من كلام النساء ما يقوم مقام الماء فيشفي الظماء.
وذكر أعرابي امرأة فقال: تلك شمس باهت بها الأرض شمس سمائها، وليس لي
شفيع في اقتضائها، وإن نفسي لكتوم لدائها، ولكنها تفيض عند امتلائها. أخذ هذا المعنى
حبيب فقال:

ويا شمس أرضيها التي تم نورها فباهت بها الأرضون شمس سمائها
شكوت وما الشكوى لمثلي عادة ولكن تفيض النفس عند امتلائها

وقيل لأعرابي: ما بال الحب اليوم على غير ما كان عليه قبل اليوم؟ قال: نعم، كان
الحب في القلب، فانتقل إلى المعدة، إن أطعمته شيئاً أحبها، وإلا فلا. كان الرجل إذا أحب
امرأة ظل حولاً يطوف بدارها، ويفرح إن رأى من رآها، وإن ظفر منها بمجلس تشاكيا
وتناشدا الأشعار، وإنه اليوم يشير إليها وتشير إليه، ويعدها وتعهده، فإذا اجتمعا لم
يشكوا حباً، ولم ينشدا شعراً.

وقال أعرابي يشكو لوعة الحب وكتمانه وصبره على من يحبه، ولا يطيق سلوانه:

شكوت فقالت: كل هذا تبرما بحبي، أراح الله قلبك من حبي
فلما كتمت الحب قالت: لشد ما صبرت، وما هذا بفعل شجي القلب
وأدنو فتقصيني فأبعد طالباً رضاها، فتعتد التباعد من ذنبي
فشكواي تؤذيها، وصبري يسوءها وتجزع من بُعدي، وتنفر من قربي
فيا قوم هل من حيلة تعلمونها؟ أشيروا بها، واستوجبوا الشكر من ربي

الوصف بعد المشاهدة^٢

اشتهر القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني بروائع الكلم في نظم الشعر، واتخذ لنفسه طرائق سهلة، غاية في البساطة، فكان يسمو بوصف ما أحسَّ به، واستساغه، ويكسوه من رقة المعاني أسلوباً جميلاً يقربه إلى الفهم، حتى يتذوق أنغامه المستمع شراباً عذباً سلسبيلًا، ويملأ به المحزون صدره نسيماً صافياً عليلاً، ومن بدائع طُرْفِه قوله:

أفدي الذي قال وفي كفه مثل الذي أشربُ من فيه
الورد: قد أينع في وجنتي قلت: فَمِي باللثم يجنيه

وقوله، ولم أسمع في التعريض بالالتحاء أحسن منه:

قد برَّح الحب بمشائقك فأؤله أحسن أخلاقك
لا تجفه وارع له حقه فإنه آخر عشاقك

وقوله في فصد الحبيب:

يا ليت عيني تحمَّلت ألمك وليت نفسي تقسمت سقمك
وليت كف الطبيب إذ فصدت عرقك أجرت من ناظري دمك
أعرته صبغ وجنتيك كما تعيره إن لثمت من لثمك
طرفك أمضى من حدِّ مبضعه فالحظُّ به العرق واغتتم ألمك

وقوله من قصيدة أولها:

من أين للعارض الساري تلهبه وكيف طبَّق وجه الأرض صيبه
هل استعان جفوني فهي تنجده أم استعار فؤادي فهو يلهبه

ومنها:

بجانِبِ الكَرَمِ من بغداد لي قمر
وصاحب ما صحبت الدهر مذ بعدت
في كل يوم لعيني ما يؤرقها
وما البعادُ دهاني، بل خلائقُه
لولا التجمُّلُ ما أنفكُ أندبه
دياره، وأراني لست أصحابه
من ذكره ولقلبي ما يعذبُه
ولا الفراق شجان، بل تجنُّبه

وله أيضًا:

وقالوا اضطرب في الأرض فالرزق أوسع
إذا لم يكن في الأرض حُرٌّ يعينني
فقلت: ولكن مطلب الرزق ضيق
ولم يك لي كسبٌ، فمن أين أرزقُ؟

أسنانُ النساء^٢

قال أبو الحسن الأخفش: من أحسن ما قيل في ترتيب أسنان النساء — وإن كان شعرًا ضعيفًا — قول ضمرة للنعمان بن المنذر، وقد سأله وصف النساء:

متى تلقَ بنت «العشر» قد نصَّ ثديها
تجد لذة منها لخفة رُوحها
وصاحبة «العشرين»: لا شيء مثلها
وبنت «الثلاثين»: الشفاء حديثها
وإن تلقَ بنت «الأربعين» فغبطة
وصاحبة «الخمسين»: فيها بقيَّة
وصاحبة «الستين»: لا خير عندها
وصاحبة «السبعين»: إن تلف معرسًا
وذات «الثمانين»: التي قد تجللت
وصاحبة «التسعين»: يرعش رأسها
ومن طالع الأخرى، فقد ضل عقله
كلؤلؤة الغواص يهتز جيدها
وغرَّتْها، والحسن بعد زيدها
فتلك التي تلهو بها وتريدها
هي العيش ما رقت ولا دقَّ عودها
وخير النساء: أودُّها وولُودها
من الحسن واللذات، صلب عمودها
وفيها ضياع، لا حريص يُريدها
عليها فتلكم خزية يستفيدها
من الكبر الفاني وقُدَّ وريدها
وبالليل مقلّاق قليل هجودها
وتحسب أن الناس طرًّا عبيدها

دارة يلعب فيها البدر^٤

عرف الشيخ سعيد السمان الدمشقي، بحبّ الجمال، وشغف بتصوير ما يعشق تصويرًا حساسًا، ومن قوله مضمناً مصراعه الأخير:

يا رُبَّ ظبي كالمدام حديثه فيسيغه سمعي وعقلي يطرب
قد خلته شمس النهار بكفه مرآة حسن لونها يتذهب
والوجه فيها لائح فكأنها هي دارة والبدر فيها يلعب

وقال العالم أحمد المتيني، مضمناً نفس المصراع:

عاتبته وكأنه من لطفه راخ تكاد لها اللواظ تشرب
بالعقل والشطرنج يلعب وهو في فسطاط حسن للمسرة يجلب
يحكي الزمرد خضرة فكأنما هي دارة والبدر فيها يلعب

المرأة والطيب^٥

يحملن أترجة نضخ العبير بها كأن تطيابها في الأنف مشموم

الأترجة هنا: كناية عن المرأة شبهها بها في طيب رائحتها، وما في لونها من الصفرة وكانت العرب تكره بياض اللون المفرط، ولذلك كانوا يعييون قول الأعشى:

ومن كل بيضاء رُعبوبة لها بشر ناصع كاللبن

وكانوا يستحسنون قول ذي الرمة:

صفراء في نعج بيضاء في دَعج كأنها فضة قد مسّها ذهب

نتف الوجه بالخيط^٦

قال الناظم: لما استقر بنا المقام، بين إقدام وإحجام، ودفعنا الحنين إلى ما يُحَمَّد عقباه، قرأنا على أبي بكر بن دُرَيْد رحمه الله:

فلما مضى شهر وعشر لغيرها وقالوا: يجيء الآن قد حان حينها
أمرت من الكتان خيطاً وأرسلت جرياً إلى أخرى قريباً تعينها

هذه امرأة تنتظر عيراً تقدم وزوجها فيها، فأرادت أن تنتف وجهها بالخيط وتتهياً له. والجري: الرسول. يقول: أرسلته إلى جارة لها تستعين بها في نتف وجهها بالخيط للترئين. وبعد هذا سار مسترسلاً معبراً عن الخيط بالسلك؛ لأنه أقرب إلى المعنى، وأسلس في المبني، فقال:

فما زال يجري السلك في حر وجهها وجببتها حتى ثنَّته قرونها

ثنته: كفته. وقرونها: ذوائبها، ومنه قول مجنون ليلي لزوجها:

بريك هل ضممت إليك ليلي قبيل الصبح أو قبّلت فاها؟
وهل رفّت عليك قرون ليلي رفيف الأقحوانة في شذاها

تشبيه المرأة ببدر السماء

بدت لميس كأنها بدر السماء إذا تبدّى

قوله: «كأنها بدر السماء» في موضع الحال للمرأة، أي: بدت مشبهة البدر، و«إذا تبدّى» ظرف لما دل عليه كأن من معنى الفعل، أي: برزت هذه المرأة كاشفة عن وجهها، كأنها قد أرسلت نقابها، ودل على هذا بقوله: «كأنها بدر السماء إذا تبدّى»، وإنما فعلت ذلك إما للتشبيه بالإماء حتى تأمن السباء، أو لما تداخلها من الرعب. ومثله قول الشاعر:

ونسوتكم في الروع بادِ وجوهها يُخَلَّنَ إِمَاءَ، وإِمَاءَ حرائر

لقاء فتى جميل الوجه في الجنة

ذكر المبرد عن أبي كامل، عن إسحاق بن إبراهيم، عن رجاء بن عمرو النخعي قال: كان بالكوفة فتى جميل الوجه، شديد التعبد والاجتهاد، فنزل في جوار قوم من النخع، فنظر إلى جارية منهن جميلة، فهويها وهام بها عقله، ونزل بالجارية ما نزل به، فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها، فلما اشتد عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوى، أرسلت إليه الجارية: قد بلغني شدة محبتك لي، وقد اشتد بلائي بك، فإن شئت زرتك، وإن شئت سهلت لك أن تأتي إلى منزلي. فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخلتين؛ ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أخاف نارا لا يخبو سعيها، ولا يخمد لهيبتها.

فلما أبلغها الرسول قوله، قالت: وأراه مع هذا يخاف الله، والله ما أحد أحق بهذا من أحد، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا، وألقت علائقها خلف ظهرها، وجعلت تتعبد، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبا للفتى وشوقا إليه حتى ماتت من ذلك، فكان الفتى يأتي قبرها فيبكي عنده، ويدعو لها؛ فغلبته عينه ذات يوم على قبرها، فرآها في منامه في أحسن منظر، فقال لها: كيف أنت وما لقيت؟ قالت:

نعم المحبة يا سؤلي محبتكم حبُّ يقود إلى خير وإحسان

فقال: على ذلك إلام صرت؟ فقالت:

إلى نعيم وعيش لا زوال له في جنة الخلد مُلكُ ليس بالفاني

فقال لها: اذكريني هناك، فإنني لست أنساك. فقالت: ولا أنا والله أنساك، ولقد سألت مولاي ومولاك أن يجمع بيننا، فأعني على ذلك بالاجتهاد. فقال لها: متى أراك؟ فقالت: ستأتينا عن قريب فترانا. فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليال حتى مات رحمه الله.

وذكر الزبير بن بكار أن عبد الرحمن بن أبي عمار نزل مكة، وكان من عباد أهلها، فسمي القس من عبادته، فمر يوماً بجارية تغني، فوقف فسمع غناءها فرآه مولاها، فأمر أن يدخل عليها فأبى، فقال له: فاقعد في مكان تسمع غناءها ولا تراها. ففعل فأعجبه، فقال له مولاها: هل لك أن أحولها إليك؟ فامتنع بعض الامتناع، ثم أجابه إلى ذلك. فنظر إليها فأعجبه، فشغف بها وشغفت به.

وعلم بذلك أهل مكة، فقالت له ذات يوم: أنا والله أحبك، فقال: وأنا والله أحب ذلك. قالت: فما يمنك؟ فإن الموضوع خال! قال لها: ويحك، إني سمعت الله يقول: ﴿الْأَجَلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾، فأنا والله أكره أن يكون صلة ما بيني وبينك في الدنيا عداوة يوم القيامة، ثم نهض وعيناه تذرفان بالدموع من حبه!

تكنى المرأة بالشاة أو البيضة^٧

خرج الرشيد في بعض أسفاره، فأخرج معه أخته عُلَيَّةَ، وكان قد بلغه أنها تعجب بسلام له اسمه «رَشَا» فأبعده، وقيل قتله، ثم إنها علقت من بعده غلاماً آخر اسمه «طَلٌّ»، فكانت تكثر من ذكرها له. فقال لها الرشيد: والله لئن ذكرته لأقتلنك، فدخل عليها يوماً على حين غفلة وهي تقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾، فلما شعرت به قرأت أول الآية: ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾، ثم أمسكت حتى لا تذكر اسم (طل)، وأكملت قائلة: «فإن لم يصبها وابل ... فالذي نهى عنه أمير المؤمنين؛ فابتسم الرشيد، وقال لها: «ولا هذا أيضاً يا أُخِيَّةَ».

وقيل: إنه أخرج ذلك الغلام من قصره؛ فطار قلبها حزناً لفراقه، وقالت:

أيا سرحة البستان طال تشوقي فهل لي إلى ظلِّك إليك سبيل؟
متى يشتفي من ليس يرجي خروجه وليس لمن يهوى إليه دخول

فانظر كيف ورّت «بظلّ عن ظلّ» بعد أن قدمت ذكر السرحة — وهي الشجرة — لتمتكن من لفظة ظلّ فتبعد التهمة. وكثيراً ما تذكر العرب لفظة السرحة أو الشاة أو البيضة أو القلوص، وهي الشابة من الإبل، وتكنى بذلك عن المرأة.

وكانت أم حكيم من أجمل نساء وقتها، ومن أشجع الناس وأحسنهم بديهة، خطبها جماعة من أشراف الخوارج فردّتهم، وكانت مع أمير الخوارج قطريّ بن الفجاءة، في جند (الأباضية)، فكانت ترتجز في تلك الحروب وتقول:

أحمل رأسًا قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله؟

والخوارج يفدونها بالآباء والأمهات، وكان «قطري» يُشبّب بها، وفيها يقول في وقعة دُولاب، وهو من رقيق الغزل:

لعمركُ إنني في الحياة لزاهد
من الخفرات البيض لم ير مثلها
لعمركُ إنني يوم أطم وجهها
ولو شاهدتني يوم دولاّب أبصرت
غداة طغت علماء بكر بن وائل
فلم أر يومًا كان أكثر مقعصًا
وضاربة حدًّا كريمًا على فتى
أصيب بدولاّب ولم تك موطنًا
فلو شاهدتني يوم ذاك وخیلنا
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم
وفي العيش ما لم ألق «أم حكيم»
شفاء لذي بث ولا لسقيم
على نائبات الدهر جدّ لئيم
طعان فتى في الحرب غير ذميم
وعُجنا صدور الخيل نحو تميم
يمجُّ دمًا من فايط وكليم
أغرّ نجيب الأمهات، كريم
له أرض دولاّب، ودير حميم
تبيح من الكفار كلّ حريم
بجنة عدن عنده ونعيم

أسماء النساء^٨

ولا بن الوردی فی «أسماء»:

أرى أسما إذا غضبت وصدت
وإن هي واصلتني طاب قلبي
أكاد من الغرام أموت سقما
كأنني بتُّ أوقيه بأسما

وفيها أيضًا:

قد لآمني في حب أسما عاذل
فأعجب لمجرى مدامع أوقفقتها
أجرى مدامع مقلتي بدما
من فعل ذاك الحرف في أسما

وفي آمنة:

قد وعدتني بالوفا آمنه
كيف يخاف القلب من بينها
وقد غدت بالرضا آمنه
ومهجتي أضحت بها آمنه

وفيها أيضًا:

هيفاء كالغصن الرطيب قوامها
تهددني بالهجر في الوصل عامدًا
محببتها في لجة القلب كآمنه
فأصبح منها خائفًا وهي آمنه

وللأزهري في أنس:

أنست بالوصل مذ جاءت به أنس
عن مالك قد روى نيران وجنتها
يومًا وعاذلها قد باء بالخرس
لكن حديث اللقا أرويه عن أنس

وله في حليلة:

قالوا حليلة صبحت
لم لا ترقِّ لحالي
بفرط وجددي عليه
في الحب وهي حليلة

وفي خديجة:

خديجة قد سبتني
وكانت الروح تقسو
بنار خدِّ وهيجه
والآن روعي خديجه

وفيها أيضًا:

تعشق في الهوى قلبي فتاة
أوت بحبها شوقًا وأحيا
تزين البدر ذو حسن بهيجه
إذا ناديت يا ستي خديجه

وفي زينب:

وعرّض بذكري حين تسمع زينب
عساها إذا ما مرّ ذكرى بسمعها
وقل ليس يخلو ساعة منك آله
تقول فلان عندكم كيف حاله؟

وفي سلمى:

لسلمى من لواظها سهام
إذا رامت تشكّ به فؤادًا
لها في القلب فتك أيّ فتك
يموت المستهام بغير شك

وفي عائشة:

أيا دهر خبرني بحقك واشفني
أحلُّ أني في المحبة ميت
فسهام فكري في أموري طائشه
وحبيبتي من بعد موتي عايشه

وفيها أيضًا:

شغل القلب بقدّ أهيف
أنت دعني أن أمت في حبها
تركت منه العوالي طائشه
ثم دعها بعد عيني عايشه

وفي فاطمة:

فاطمة مذ كنت طفلًا بها
كم أرضعتني وصلها بالهنا
متُّ جوى وهي بذا عالمه
ثم انثنت لي بأنها فاطمه

وفيها أيضًا:

هيفاء كالغصن لها قامة
قد أرضعت طفل الهوى مرة
عادلة مع أنها ظالمه
بوصلها ثم انثنت فاطمه

وفيها أيضًا:

قاتلتي قد أصبحت
ناديتها يا مهجتي
والبحر منها كاظمة
ما الاسم؟ قالت: فاطمه

ولالأزهرى في نفيسة:

نفيسة بالبها ملكت فؤادي
وقد حازت لفرط سنا بهاها
وأضحت في ملاحظتها رئيسه
وذات الحسن مرتبة نفيسه

ولابن الجميل في عالمة:

عالمة عاملة بالجفاء
قلت لها: هل تعلمين الذي
قامتها عادلة ظالمه
ألقاه قالت: إنني عالمة

وله أيضًا فيها:

عالمة لها على
وأوتيت من كل شي
كرسيها فضلٌ جسيم
ولها عرش عظيم

ولابن الوردي في قابلة:

أقول لقابلة أدمعي
أنا رجل مقبل للقا
على حبا تقطع السابله
قالت: وأنا امرأة قابله

وله في كاتبة:

كاتبة توقيح نسخ الجفا
تكتم أسرار رقاعي لها
يصدر عن سمتها الراحمة
أحسن بها كاتبة كاتمة

وله في فقيهة:

تفقهت في عذابي
خود تسيط غرامي
وبالغت في جدالي
عن طرفها الغزالي

ولالأزهري في خياطة:

أحببتُها كالبدر خياطة
فلي ركوب الفرج من وصلها
منزلها في القلب والطرف
وللرقيب الشلُّ بالكفُّ

وله في عجانة:

كلف الفؤاد بظبية عجانة
عجنت فؤادي بالگرام فماؤها
ما كنت يوماً آمناً من هجرها
من أدمعي ودقيقها من خصرها

وله في جبانة، أي بائعة الجبن:

بائعة جبن مُذْ هُمْتُ بها
وكل أهل الحيِّ قد تحقّقوا
رأى الورى روعي بها تعبانهُ
بأنني أموت في الجبانهُ

وله في مسحرة:

عجبت في رمضان من مسحرة
جاءت تسحرنا يوماً فقلت لها
بديعة الحسن إلا أنها ابتدعت
كيف السحور وهذي الشمس قد طلّعت

ولابن الوردِيّ في رومية:

تركية صارمها هندي روميّة الأصل لها مقلّة
من وجنة فاضحة الوردِيّ تفضحني وجنتها فاعجبوا

وله في مصريّة:

مصرية كأنها بدر فجلّ من خَلَق
تملقني مكرًا ولا ينكر من مصر الملقّ

وله في شاميّة:

شامية شامة بوجنتها يرقّ لي في حبّها الشامّة
أخشى من الملامة إذا قبلتها فشوم بختي ينطق الصامتُ

وله في بدوية:

وبي من البدو كحلاء الجفون بدت في قومها كمهابة بين آساد
فلو بدت لحسانِ الحضر قمن لها على الرؤوس وكان الفضل للبادي

وله في عراقية:

بي هيفاء من بنات العراق أطلقت أدمعي وشدت وثاقي
ثم قالت: أتيت من باب أبرز بالعطايا رأيت باب الطاق

وله في مشرقية:

جاءت من المشرق لا مالنا في عينها شيء ولاجا هنا
وقالت: احذر يا فتى فتنة للناس، والفتنة من ها هنا

وله في مغربية:

يا بنات الشرق حاذرن السطا
ما ظهر البدر من مشرقه
إن بنت الغرب في موكبها
كطلوع الشمس من مغربها

وللأزهري في مجوسية:

عابدة النور سنا نورها
قد أحرقت قلبي بهجرانها
أوضح لي في الحب أذارا
فالويل ممّن يعبد النارا

وله في نصرانية:

زَنّار بنت النصارى
رجائي الشد منه
فخُّ لها أي فخّ
وكثرة الشدّ ترخي

وقال آخر في مليحة تلعب الشطرنج:

لعبتها الشطرنج ثم ضربتها
قالت: فنفسك، قلت: حصنتها
بالرخ شاة تسترت بالفيل
لكن خذي فرسي هناك وفيلي

هوامش

- (١) في العقد الفريد ج ٢ ص ١١٥.
- (٢) في خاص الخاص للثعالبي.
- (٣) في أمالي أبي القاسم الزجاجي.
- (٤) في سلك الدرر ج ١ ص ٢٠٨.
- (٥) في الاقتضاب ص ٣٨٢.
- (٦) في أمالي القالي ج ١ ص ١٩٨.
- (٧) في سناء المهدي ص ١٩٣.
- (٨) الجزء رقم ٩٤٨ شعر تيمور.

الغزل ووصف النساء

الغزل والتغزل والفرق بينهما^١

قيل لأبي السائب المخزومي: أترى أحداً لا يشتهي النسيب؟

فقال: أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا!

والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد.

قيل: الغزل هو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن، فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ. وقد نبه على ذلك «قُدّامة»، وأوضحه في كتابه «نقد الشعر».

وقال الحاتمي: من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه، أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم، متصلًا به غير منفصل منه، فإن القصيدة مثلها مثل خَلَق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد من الآخر وبأينه في صحة التركيب، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتُعفي معالم جماله.

يا ليل الصبّ متى غده؟^٢

من نواذر الطرائف ما ذكره «ابن بشكوال» في كتاب الصلة، كما ذكره الحميدي أيضًا، وهو: كان أبو الحسن علي الحصري القيرواني ابن خالة أبي اسحاق صاحب «زهر الآداب» حافظًا فاقها، وأديبًا عالمًا بالقراءات وطرقها.

وقد أقرأ الناس القرآن الكريم في «سبّة» وغيرها، وله قصيدة نظمها في قراءات نافع عدد أبياتها مائتان وتسعة، وله ديوان شعر، ومن قصائده السائرة القصيدة المشهورة التي أولها:

بالليل الصبّ متى غدّه أقيام الساعة موعده

وقد وازنها صاحبنا الفقيه نجم الدين موسى بن محمد الكناني أبو الفضائل المعروف بالقمرأوي رحمه الله بأبيات من جملتها:

قد ملّ مريضك عوده	ورثي لأسيرك حسده
لم يبق جفاك سوى نفس	زفرا ت الشوق تصعده
هاروت يعنعن في السحر	إلى عينيك ويسنده
وإذا أغمدت اللحظ فتكت	فكيف وأنت تجرّده
كم سهل خدك وجه رضا	والحاجب منك يعقده
ما أشرك فيك القلب فكم	في نار الهجر يخلده

أما قصيدة أبي الحسن على الحصري القيراواني فهي:

يا ليل الصبّ متى غدّه	أقيام الساعة موعده
رقد السّمار فأرقه	أسفّ للبين يردده
فبكاه النجم ورق له	مما يرعاه ويرصده
كلف بغزال ذي هيف	خوف الواشين يشرده
نصبت عيناى له شركا	في النوم فعزّ تصيده
وكفى عجباً أنّي قنص	للسرب سباني أغيده
صنم للفتنة منتصب	أهواه ولا أتعبده
صاح والخمر جنى فمه	سكران اللحظ معربده
ينضو من مقلته سيفاً	وكأن نعاساً يغمده
فيريق دم العُشاق به	والويل لمن يتقلده
كلّاً، لا ذنب لمن قتلت	عيناها ولم تقتل يده
يا من جحدت عيناها دمي	وعلى خديّه تورّده
خدك قد اعترفا بدمي	فعلام جُفونك تجحده

وأظنك لا تتعمدُهُ	إنني لأعيذك من قتلي
فلعل خيالك يُسعده	بالله هب المشتاق كرى
صبّ يدنيك وتُبَعده	ما ضرك لو داويت ضني
فليبك عليه عودهُ	لم يبق هواك له رمقًا
هل من نظر ... يتزوّدهُ	وغدًا يقضى أو بعد غدٍ
بالدمع يفيض مورّدهُ	يا أهل الشوق لنا شرق
وصروف الدهر تُبَعده	يهوى المشتاق لقاءكم
لولا الأيام تنكّدهُ	ما أحلى الوصل وأعذبه
لفؤادي كيف تجلّدهُ	بالبين وبالهجران، فيما
غيري بالباطل يفسده	الحب أعف ذويه أنا

استحسان وضاءة الوجه^٢

كان لعزّ الدولة غلام زكي وضيء الوجه، ولفرط ميله إليه جعله رئيس سرية جردت للحرب، ولم يستحسن المهيلمي ذلك منه، فكتب إليه:

وحناته ويروق عوده	ظبي يرق الماء في
سيفًا ومنطقة تؤوده	ناطوا بمعقد خصره
ضاع الرعيل ومن يقوده	جعلوه قائد عسكر

وكانت الدائرة على جيش الغلام كما أشار المهيلمي!
وفي «خزانة الأدب» للبغدادي ج ٣:

الجارية: جميلة من بعيد، مليحة من قريب، والجميلة هي التي تأخذ بصرك جملة، فإذا دنت منك لم تكن كذلك، والمليحة هي التي كلما كرّرت بصرك منها زادتك حسناً.

وقيل: الجميلة هي السمينة من الجميل وهو الشحم، والمليحة: هي البيضاء، والصبيحة كذلك، من الصُّبح لبياضه.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «حسن الوجه مال».

وقال عليه الصلاة والسلام أيضًا: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه». وقال ابن عمر: قال ﷺ: «ثلاثة تجلو البصر: النظر إلى الخضرة، والنظر إلى الماء الجاري، والنظر إلى الوجه الحسن». ونظمها الشاعر فقال:

ثلاثة يُذهِبْنَ للمرء الحزنُ الماء والخضرة والوجه الحسن

كواكب لا كواكب

كان عبد العزيز بن سرايا، وهو الإمام العلامة شاعر عصره على الإطلاق، وقد أجاد القصائد المطولة والمقاطع، وأتى بما أخرج زهر النجوم في السماء، كما قد أزرى بزهر الأرض في الربيع، تطربك ألفاظه المصقولة، ومعانيه المعسولة، ومقاصده التي كأنها سهام راشقة، وسيوف مسلولة.

وكان مولده يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٧هـ، ورحل إلى مصر سنة ٧٢٦هـ، واجتمع بالقاضي علاء الدين بن الأثير ومدحه، كما مدح السلطان الملك الناصر بقصيدة وازى بها قصيدة المتنبي التي أولها: «بأبي الشموس الجانحات غواربا»، وفيها يقول:

أسبلن من فوق النهود نوايبا	فتركن حبات القلوب نوايبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة	غادرن فود الليل منها شائبا
بيض دعاهنَّ الغبِّي كواعبا	ولو استبان الرشد قال كواكبا
سفهن رأى المانوية عندما	أسبلن من ظلم الشعور غياهما
وسفرن لي، فرأين شخصًا حاضرًا	شدهت بصيرته، وقلبًا غائبًا
أشرقن في حلل كأن أديمها	شفقُ تدرهمه الشموس جلاببا
وغربن في كليل، فقلت لصاحبي:	«بأبي الشموس الجانحات غواربا»
ومعربد اللحظات يثنى عطفه	فيُخال من فرح الشبيبة شاربا
حلو التعتب والدلال يروعه	عتبي، ولست أراه إلا عاتبا
عاتبته فتضرجت وجناته	وازورَّ أَلحاظًا وقطَّب حاجبا

فأراني الخدَّ الكليم فطرفه ذو النون إذ ذهب الغداة مُغاضبا
ذو منظر تغدو القلوب بحسنه نهبًا وإن منح العيون مواهبا
لا غرو إن وهب اللواحق حظوة من نوره، وغدا لقلبي ناهبا

كل فتاة بأبيها معجبة

أرجوزة للأغلب العجلي، يقول فيها:

كريمة أخوالها والعصبه قبّاء ذات سُرة مُقَعِّبه
كأنها حقة مسك مذهبه ممكورة الأعلى رداح الحَبِّه
كأنها حلية سيف مُذهبه أهوى لها شيخ شديد العصبه
ثم انثنت به فويق الرقبه فأعلنت بصوتها: أن يا أبه
«كل فتاة بأبيها معجبه»

أصل بليتي من قد غزاني °

من روائع شعر عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلب السعدي الصقلي المعروف بالقاضي الجليس — ما يدعو إلى الحكمة في غزله — وقد عاش نحوًا من سبعين عامًا، كما تولى ديوان الإنشاء للفائز مع الموفق بن الخلال، ومن مداعبته:

حيًا بتفاحة مخضّبة من شفّتي حبّه وتيّمني
فقلت: ما إن رأيت مُشبهها فاحمرّ من خجلة فكذبني

وقال أيضًا:

وأصل بليتي من قد غزاني من السقم الملح بعسكرين
طبيب طبه كغراب بين يفرّق بين عافيتي وبينني
أتى الحمى وقد شاخت وباخت فعاد لها الشباب بنسختين

ودبّرها بتدبير لطيفٍ حكاها عن سُنين أو حنينِ
فكانت نوبة في كل يوم فصيّرها بحذق نوبتينِ

وقال أيضًا:

يا وارثًا عن أب وجدِّ فضيلة الطبِّ والسِّداد
وحاملًا ردَّ كل نفس همّت عن الجسم بالبعاد
أقسم لو قد طبيب دهرًا لعاد كوثًا بلا فساد

وقال من جناس بديع:

رُبَّ بيض سلن باللحظ بيضا مرهفات جفونهن جفون
وحدود للدمع فيها حدود وعيونٍ قد فاض منها عيون

وقال أيضًا:

حبذا متعة الشباب يُعد نذر في حبّها خليع العذار
إذ بذات الخمار أمتع ليلي وبذات الخمار ألهُو نهاري
والغواني لا عن وصال غوانٍ والجواري إلى جواري جواري

تشبيب عمر بن أبي ربيعة

كانت عائشة ابنة طلحة بن عبد الرحمن بن أبي بكر مديدة الجسم، مكتنزة اللحم، على جانب وافر من الجمال، حسنة الصورة، وفي خلقها أنفة وعزة وصرامة، حتى أن أبا هريرة رآها يومًا فسبح وقال: كأنها من الحور.

وقد روى أبو الحسن المدائني، عن عمر وأبي طارق بن المبارك، أن عمر بن أبي ربيعة قال يشيب بعائشة ابنة طلحة:

أصبح القلب في الخيال رهينًا مقصدًا يوم فارق الظاعنينَا

لم يرعني إلا الفتاة وإلا	دمعها في الرداء سحا سخينا
عجلت حمة الفراق علينا	برحيل ولم تخف أن تبينا
أنت أهوى العباد قرباً ووداً	لو تواتين عاشقاً محزوناً
قاده الطرف يوم مر إلى الحي	من جهاراً ولم يخف أن يحينا
وجلا برد بركة جندي	ضوء وجه يضيء لناظرينا
فإذا ظبية تراعى نعاجاً	ومها بهج المناظر عينا
قلت: من أنتم؟ فصدت وقالت	أُمِّدْ سؤالك العالمينا؟
قلت: بالله ذي الجلالة لما	إذ تبلت الفؤاد أن تصدقينا
أبي من تجمع المواسم أنتم	فأبينى لنا ولا تكذبينا
نحن من ساكنى العراق وكنا	قبلها قاطنين مكة حيناً
قد صدقناك أن سألت فمن أنـ	ت عسى أن يجرّ شأن شؤوننا
قد نرى أننا عرفناك بالنعـ	ت نظن وما قتلنا يقينا
بسواد الثنيتين وثغر	قد نراه لناظر مستبينا

فكانت عائشة تقول: والله ما قلت له هذا وما كلمته قط.

وأبناء أبو الحسن عبد الله بن قائد قال: دخلت عائشة بنت طلحة بمكة على الوليد بن عبد الملك فحدثته وقالت: يا أمير المؤمنين، مر لي بأعوان، فصير إليها قوماً يكونون معها، فحجّت معها ستون بغلاً عليها الهودج والرحائل.

صبح المشيب يدل على ليل الشباب^٦

قال الأمير أسامة بن منقذ:

قالوا نهاه الأربعون عن الصبا	وأخو المشيب يجوز ثمة يهتدي
كم حار في ليل الشباب، فدله	صبح المشيب على الطريق الأتدي
وإذا عدت سني ثم نقصتها	ومن الهموم فتلك ساعة مولدي

الشاعر الغزال^٧

من روائع البيان ما حكاه ابن حبان من أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم المرواني وجه شاعره الغزال إلى ملك الروم؛ فأعجب الملك حديثه لما حواه من رقة المعاني، وخف على قلبه ما احتواه من دقة المباني، وسرّ به سرورًا عظيمًا، ونال من لدنه ودًا وتكريمًا، حتى إنه مال إليه، وقرّب به لديه، فطلب منه منادمته، إلا أنه امتنع لما أدرك جلية الأمر، معتذرًا بتحريم الخمر.

فلما أن كان يومًا جالسًا عنده، إذ خرجت زوجة الملك وعليها زينتها، ووجهها جميل مشرق، كأنها الشمس الطالعة حسنًا وضياءً، فما لبث الغزال لا يميل طرفه عنها شغفًا بباهر ما استرعاها منها، وجعل الملك يحدثه وهو لاهٍ عن حديثه؛ فأنكر ذلك عليه، وأمر الترجمان بسؤاله، فقال له: عرّفه أني قد بهرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه، فإنني لم أر قط مثلها، وأخذ في وصفها، وما شاهده من عجب جمالها ودلالها، حتى لكانما شوقته إلى لقاء الحور العين، فلما ذكر الترجمان ذلك لملك الروم زاد إعجابه بالشاعر الغزال، كما سرّت الملكة بوصفه لها.

غزال قد غزا قلبي^٨

في كتاب «المطرب» حكى أبو الخطاب بن دحية أن الغزال — وشهرة اسمه «غزال» — أرسل إلى بلاد المجوس، وقد قارب الخمسين أو تزيد، وقد وخطه الشيب، ولكنه كان مجتمع الأشد، ضليع الجسم، قسيمًا وسيمًا، فسألته يومًا زوجة الملك، واسمها (تود) عن سنه، فقال مداعبًا: عشرون سنة. فقالت: وما هذا الشيب؟ فقال: وما تنكرين من هذا؟ ألم تري قط مُهرًا ينتج وهو أشهب؟ فأعجبت بقوله، وقال في ذلك:

كُلفت يا قلبي هوى متعبًا	غالبت منه الضيغم الأغلبا
إنني تعلقت مجوسية	تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله في حيث لا	يلفى إليه ناهب مذهبا
يا تود يا ورد الشباب الذي	تطلع من أزرارها الكوكبا
يا بأبي الشخص الذي لا أرى	أحلى على قلبي ولا أعذبا
إن قلت يومًا إن عيني رأيت	مشبهه لم أعد أن أكذبا

قالت: أرى (فوديه) قد نورا
قات لها: ما باله ... إنه
دعابة توجب أن أدعبا
قد ينتج المهر كذا أشهبا
وإنما قلت لكي تُعجبا
فاستضحكت عجباً بقولي لها

قال: ولما فهمها — الترجمان — شعر «غزال» ضحكت، وأمرته بالخضاب فغدا عليها، وقد اختضب وقال:

بكرتُ تحسن لي سواد خضابي
ما الشيب عندي والخضاب لواصف
فكأن ذاك أعادني لشبابي
إلا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا
لا تنكري وَضَحَ المشيب فإنما
هو زهرة الأفهام والألباب
وطلاوة الأخلاق والآداب
فلدِّي ما تهوين من زهو الصبا

غرام أم جنون

من الشعر الرائق ما امتاز به الشاعر أبو الحسن مروان بن عثمان، وقد كان يهيم بوصف محبوبته، ولم يعين لها اسماً؛ حتى لا يشهر بها في التشبيب، ولكيلا يعرفها عند العام إلا لمن لمس ودادها من الخاص، وفي الأبيات التي يناجئها بها معان قد جمع فيها حسن التعبير، سحرًا حلالًا، وكان عفيفًا في دقة نظمه، وصفاء تعبيره، فقال:

تمكن مني السقم حتى كأنني
ولو سامحت عيناه عيني في الكرى
توهّم معنى في خفي سؤال
لأشكل من طيف الخيال خيالي
وجدت بقلبي وهو عندي غالي
ولم أقض أوطاري بيوم وصال
صدود دلال لا صدود ملال
شددت عن الدنيا مطي رحالي
وهوّن ما ألقى من الوجد أنه
فلو كان ذاك الصد منه ملالة

ثم ما لبث أن استرسل في مواجيدته، واستلهم مشاعر أناشيده. فقال:

ما بال قلبك يستبين أبه غرام أم جنون
برح الخفاء بما تجنّ فأذهب الشك اليقين
حتى مشى بين الجوا نح والضلوع هوى نفين
وإلى متى قلب المتـ يم في يد البلوى رهين
شخصتُ له فيك العيون ن وقسمت فيك الظنون
وسلبت ألباب الورى بلواحظ فيها فتون
وقوام أغصان الريا ض وأين تدرك الغصون
الحسن في الأغصان فنُّ وهو في هذا فنون
من أين للأغصان ذا ك الحسن والسحر المبين؟
أم ذلك الورد الجنّي بخدّه والياسمين؟

سلعوس وسلعسة^٩

قال إبراهيم بن المهدي: كنت يوماً بحضرة المأمون، فقالت لي «عريب» على سبيل العبث:
ياسلعوس. فقلت:

أما لعريب أن ترى غير سلعسه فكوني كما أنت، تكوني كمؤنسهُ

فقال المأمون على الفور:

فإن كثرت منك الأقاويل لم يكن هنالك شك أن ذلك وسوسه

قال إبراهيم: فعجبت من فطنة المأمون. وقلت: كذا — والله — ياأمير المؤمنين
قدرت، وإياه أردت!

عاتكة بنت معاوية

حدثني الكراني قال: حدثني العمري عن الهيثم بن عدي، قال: حدثنا صالح بن حسان، قال: وأخبرني بهذا الخبر محمد بن خلف بن المرزبان، قال: حدثني محمد بن عمر، قال: حدثني محمد بن السري، قال: حدثنا هشام بن الكلبي عن أبيه يزيد، واللفظ لصالح بن حسان، وخبره أتم. قال: حجت عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان فنزلت من مكة بنذي طوى، فبينما هي ذات يوم جالسة وقد اشتد الحر وانقطع الطريق، وذلك في وقت الهاجرة، إذ أمرت جواريتها فرفعن الستر وهي جالسة في مجلسها، عليها شفوف لها، تنظر إلى الطريق، إذ مر بها أبو دهب الجمحي، وكان من أجمل الناس وأحسنهم منظراً، فوقف طويلاً ينظر إليها وإلى جمالها، وهي غافلة عنه، فلما فطنت له سترت وجهها، وأمرت بطرح الستر، وشتمته، فقال أبو دهب:

إني دعاني الحين فاقتادني	حتى رأيت الطيبي بالباب
يا حسنه إذ سبني مدبراً	مستترًا عني بجلباب
سبحان من أوقعها حسرة	صُبت على القلب بأوصاب
يذود عنها إن تطلبتها	أب لها ليس بوهاب
أحلها قصرًا منيع الذرى	يُحمى بأبواب وحجاب

وقال أيضًا:

طال ليلي وبت كالمحزون	ومللت الثواء في جيرون
وأطلت المقام بالشام حتى	ظن أهلي مرجمات الظنون
فبكت خشية التفرق جُمْلُ	كبكاء القرين إثر القرين
وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوِّ	اص ميزت من جوهر مكنون
وإذا ما نسبتهما لم تجدها	في سناء من المكارم دون
ثم خاصرتها إلى القبة الخض	راء تمشي في مرممر مسنون
قبة من مراحل ضربوها	عند برد الشتاء في قيطون
عن يساري إذا دخلت من البيا	ب وإن كنت خارجًا عن يميني
ولقد قلت إذ تطاول سقمي	وتقلبت ليلتي في فنون

ليت شعري أمن هوى طار نومي أم براني الباري قصير الجفون

وصيفة مهدوية في مجلس ابن صمادح

قال ابن بسام: ١٠ كان المعتصم بن صمادح يوماً مع ندائه، فأبرز لهم وصيفة مهدوية متصرفة في أنواع اللعب المطرب من الدك، وحضر أيضاً هناك لاعب مصري ساحر، فكان لعبه حسناً، فارتجل أبو عبد الله بن الحداد:

وتجني الهوى ناظرًا ناضرا	كذا فلتلح قمرًا زاهرا
أقام لنا هامياً هامرا	وسيبك سيبٌ ندى مغدق
منيراً كنور الضحى باهرا	وبان ليومك ذا رونق
لحظنا محيا العلا سافرا	صباح اصطبحنا بإسفاره
فما زال كوكبها زاهرا	وأطلعت فيه نجوم الكؤوس
وأحضرتنا لاعبا ساحرا	وأسمعتنا لاحقاً فاتنا
دقائق تثنى الحجا حائرا	وثناه ثان لأعباه
خواطر، دلهمت الخاطرا	وفى سورة الراح من سحره
فما الوهم عن وريدها صادرا	إذا ورد اللحظ أثناءها
فما انكف عارضها ماطرا	ومن حسن دهرك إبداعه
فيجعل غائبها حاضرا	وسعدك يجتلب المغريات

وصف جارية المنذر إلى أنو شروان

أهدى المنذر الأكبر^{١١} إلى أنو شروان، جارية كان قد أصابها إذ أغار على الحارث الأكبر بن أبي شمر الغساني، وكتب إلى أنو شروان يصفها فقال:

إنني قد وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخلق، نقية اللون والثغر، بيضاء قمراء، وطفاء كحلاء، دعجاء عيناء، قنواء شماء، برجاء زجاء، أسيلة الخد، شهية المقبل، جثة الشعر، عظيمة الهامة، بعيدة مهوى القرط، عيطاء عريضة الصدر، كاعب الثدي، ضخمة مشاش المنكب والعضد، حسنة المعصم، لطيفة

الكف، سبطة البنان، ضامرة البطن، خميصة الخصر، غرثى الوشاح، رداح الإقبال، رابية الكفل، لفاء الفخذين، رياء الروادف، ضخمة المأكمتين، مفعمة الساق، مشبعة الخخال، لطيفة الكعب والقدم، قطوف المشي، مكسال الضحى، بضّة المتجرد، وهي سموع للسيد، ليست بخنساء ولا سفعاء، دقيقة الأنف، عزيزة النفس، لم تغد في بؤس، رزينة حليلة، ركيئة، كريمة الخال، تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها، وتستغني بفصيلتها دون جماع قبيلتها، قد أحكمتها الأمور في الأدب، فرأيها رأي أهل الشرف، وعملها عمل أهل الحاجة، صناع الكفين، قطيعة اللسان، رهوة الصوت، ساكنة، تزين الولي، وتشين العدو، إن أردتها اشتهدت، وإن تركتها انتهت.

فارس عربي جميل

حكى محمد بن إسحاق^{١٢} قال: كنت مشغولاً بأخبار العرب وأشعارها، وأذكر أنها من أغرب الأشعار، وأميل إلى ذكر أيام العرب، وأحب أن أسمعها وأجمعها، فنزل علينا في بعض الأيام فتيان من بني ثعلبة، فذهبت إليهم لأسمع من أشعارهم، وأجمع من أخبارهم، فمررت بفناء خيمة، وإذا غلام ما رأيت مثله قط حسناً وجمالاً، له ذؤابتان كأنهما السَّبْح المنظوم، تحت ذلك وجه كالقمر ليلة تمه، وعنده امرأة أحسن منه وأجمل، وأكثر ما أسمع من كلامها (يا بني)، وهو يبتسم لها، وقد غلب عليه الحياء كأنه كاعب عذراء، ولا يرد لها جواباً من الاستحياء؛ فاستحسننت ما رأيت منهما، فدنوت من الخباء، فبصرت المرأة بي، ثم قالت لي: يا حضري، ما حاجتك؟ فقلت: لا حاجة لي إلا الذي استحسننت منك ومن هذا الغلام. فقالت: أتحب أن أسمعك شيئاً من خبره، وهو خير لك من نظره؟ فقلت لها: هاتي لله در أبيك. فقالت لي: إني حملته تسعة أشهر، فكنا في عيش ضنك كدر، ورزق نزر حقيز، حتى إذا شاء الله أن أضعه، فوضعتة — بحمد الله — خلقاً سوياً، فلا وأبيك ما هو إلا أن وضعته حتى من الله علينا، وأجزل وسهل وتفضل بيمن وجهه وسعادة طلعتة، فسميته (مالكا)، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من المهد بيني وبين أبيه، فنشأ بيننا كأنه شبل أسد، نقيه برد الشتاء وحر الصيف، فلما مر عليه خمسة أعوام دفعته إلى مؤدب يعلمه القرآن، فقرأه وتلاه، ونظم الشعر ورواه، حتى أتم سبع عشرة سنة، فأركبته عتاق الخيل فتفرس، وحمل السلاح

فتشرس، ومشى بين بيوت الحي، وأصغى إلى صوت الصارخ، وأنا خائفة عليه وجلة مشفقة من الألسنة أن تشينه، ومن الألاحظ أن تعينه، حتى شاء الله أن تصيبنا سنون أجديت بلادنا، وكاد يهلك كبارنا وأطفالنا، فخرجنا إلى مناهل غير مناهلنا، ونزلنا في غير منازلنا، فخرج أصحابنا لطلب ثأرهم، وخلفه عن الركوب معهم وجع أصابه، فلا وأبيك ما علمنا حتى دهمتنا الخيل من العدو، ولم يتولنا عقل، ولا هدونا. فما كان إلا هنيهة حتى حازوا على الأموال، وانهزم الرجال، وهو في البيت يسألني عن الصوت، وأنا أكاتمته خيفه عليه، حتى علت الأصوات، وبرزت المخبات، فلما سمع ذلك ثار كما يثور الليث المنضب، وأسرج فرسه، ثم أفرغ عليه لأمة حربته، وتقلد سيفه، واعتقل رمحه. ثم لحق العدو، فطعن أدنى فارس منهم فأرداه قتيلاً، فرجعوا إليه، فأروه ولدًا لطيفًا، صبيًا ظريفًا، فعطفوا عليه ... وتلقاهم ضربًا بالسيف، وطعنًا بالرمح، حتى هلك أكثرهم وفرّ الباقون!

عَنِيَّةُ شَحَّادُهُ

ما سَحَّ وابلُ دمعته ورذانه
حتى وهى وتقطعت أفلانه
إلا رسيسٌ يحتويه جذانه
أبدًا من الحدق المراض عيانه
نظر يضربُّ بقلبك استلذانه
سهم إلى حُبِّ القلوب نفاذه
خمر يجول عليه: من نَبَّأه
وسنانُ ذاك اللحظ: ما فولأه؟
أخشى بأن يجفو عليه لأدُهُ
وهو الإمام، فمن ترى أستاذه
إلا وعزَّ على الورى استنقاذه
طوعًا وقد أودى بها استحوازه
جهدي، فدام نفوره ولوأه
كذليله، وغنيّه: شَحَّادُهُ

لو كان بالصبر الجميل ملاذه
ما زال جيش الحب يغزو قلبه
لم يبق فيه من الغرام بقية
من كان يرغب في السلامة فليكن
لا تخدعنك بالفتور فإنه
يا أيها الرشأ الذي من طرفه
دُرُّ يلوح بفيك: من نظَّامه؟
وقناة ذاك القَدُّ: كيف تقوِّمت؟
رفقًا بجسمك لا يذوب فإنني
هاروت يعجز من مواقع سحره
تالله ما علقت محاسنك امرأ
أغريت حبك بالقلوب فأذعنت
ما لي أتيت اللحظ من أبوابه
إياك من طمع المنى، فعزيزه

هوامش

- (١) في العمدة، لابن رشيق ج ٢ ص ٩٤.
- (٢) في وفيات الأعيان، لابن خلكان ج ١ ص ٤٣٢.
- (٣) في نفح الطيب.
- (٤) في خزنة الأدب ج ١.
- (٥) في فوات الوفيات.
- (٦) في خلاصة الأثر ج ٣ ص ٢٦.
- (٧) في نفح الطيب ج ١ ص ٤٥١.
- (٨) في نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٠.
- (٩) في إرشاد الأديب ج ١ ص ١٦٣.
- (١٠) نفح الطيب ج ٢ ص ٨١٦.
- (١١) في الأغاني ج ٢ ص ٢٩.
- (١٢) في العزيز المحلى ص ٧٦٢.

العيون

لأعذبن العين

قال الشاعر^١ ابن الصفدي يصف العيون:

هي التي توقع القلب في التعب، وتوفر نصيبه من أسهم الهم والنصب، وترميه بدواعي الهوان، ودواعي الهوى، وتسلمه إلى مكايده الغرام، ومكابدة الجوى، لو عذبت بطول السهر، وكثرة الدموع، وبفيض الشئون، وعدم الهجوع، وبمسامرة الأحزان والفكر، وبمراقبة النجوم إلى السحر، وبعدم الإغفاء وطول السهر، لكان استحقاقها وجود جود الدمع وإن ظما، وعدم منال المنام وإن نما:

لأعذبن العين غير مفكر	فيما جرت بالدمع أو سالت دما
ولأهجرن من الرقاد لذيدهُ	حتى يعود على الجفون محرما
هي أوقعتني في حبائل فتنة	لو لم تكن نظرت لكنت مسلما
سفكت دمي فلأسفحنّ دموعها	وهي التي بدأت وكانت أظلما

ولعل موجب هذه الواعظة، والألفاظ التي هي بالتحذير لافظة أنني خرجت في بعض الأيام متفرجًا وسارحًا، وجائلاً بطرفي في الرياض وسائحًا، وصحبني صديق لي في المحبة صادق، ورفيق لي فيما أروم موافق، قد ملك كل حسن ولطافة، وجمع كل حذق وظرافة، ينصب لخدمتي لا يملُّ ولا يسأم، ويتعب في مرضاتي لا يكل ولا يندم، ويجتهد في موافقتي لا يمن ولا ينم، ويحسن مرافقتي لا يذم ولا يذم، قد اتخذته جهينة أخباري، وكنزًا لخزائن أسراري، لا أستطيع مفارقة وجهه الجميل، وهو عندي كما قيل:

بروحي من لا أستطيع فراقه ومن هو أوفى من أخي وشقيقي
إذا غاب عني لم أزل متلفتًا أدور بعيني نحو كل طريق

معاني لفظ العين

للعلامة أحمد السجاعي – المتوفي سنة ١١٩٧هـ – قصيدة رائعة في معاني لفظ العين، وهي في فنّها غريبة قد احتوت على معانٍ في لفظ (عين)، وقد جعل حروف اسمه في أوائل أبياتها بالترتيب، وهذه هي القصيدة كما نقلت من خط الشيخ مصطفى البدري في كراسة «مجموعة لغوية»، وقد وضعنا تفسير كل لفظ عين فيها بين (قوسين) بعده:

أيا ظبيّ الفلا وكحيل عين
ويا بدر الدجى وضياء عين (الشمس)
حميت من المكاره يا غزالاً
حوى كل الكمال بدون عين (العيب)
ملكـت القلب مني يا حبيبي
وحق المصطفى المجري لعين (الماء)
دعانا للهداية نعم طه
رسول قد أبان لطرق عين (حقيقة القبلة)
أمين سيد ما فيه شك
به تهدي الأنام بكل عين (الناحية)
له ذات خلت من كل سوء
وقلب قد خلا من شين عين (الرياء)
سما فوق السماء ونال قرّباً
وخاطب ربه وحظى بعين (النظر)
جميل النفس والأفعال قطعاً
صفيّ خالص من قبح عين (الميل)

العيون

أذاع الخير فينا كل وقت
وعوذ أمة من شر عين (إصابة العين)
علا رتبًا فليس لها انتهاء
وأظهر دينه لخيار عين (الجماعة)
يقيم شريعة غراء فينا
بها ... كم قد هدى من كل عين (الإنسان)
رؤوف بالعباد رحيم قلب
عظيم القدر سيد كل عين (الكبير)
كريم منتقى، بحر العطايا
فكم منح الأنام جزيل عين (المال)
عظيم مجتبي قد ظللته
لدى حر عظام كل عين (السحاب)
خليل الله أحمد ذو كمال
مجير الناس من لحظ بعين (المطر)
رحيم بالعباد سريع بأس
على قوم لئام مثل عين (الطائر)
كبير القدر في الدارين حقًا
مغيث الناس من حر لعين (شعاع الشمس)
رسول الله أنت لنا ملاذ
لنا فيك الرجا يا نسل عين (الخيار)
فكم صرفت عنا من كرب
بُدِّينا ثم أخرى عمد عين (الجد واليقين)
وخلقك مبدأ الأشياء حقًا
حبيبي أنت أول كل عين (الشيء)
عليك الله صلى مع سلام
أصولك مثل ذا من هم كعين (الذهب)
وآل ثم أصحاب جميعًا
فهم بذلوا لدين كل عين (الدنيا أو النفس)

وكم قضبوا بسيف الله رأسًا
من الأعداء، وكم قهروا لعين (الشديد)
وكم أحيا بهم ربي علومًا
مغيبة ومنها ذات عين (الحضور)
كذا أتباعهم ما قال عبد:
أيا ظبي الفلا وكحيل عين (الباصرة)

وصف العين وأسماء أجزائها

في أول كتاب (سحر العيون): الباب الخامس في وصف العين، وأسماء أجزائها، وعيوبها الخلقية وغيرها. قال المؤلف: اعلم يا نور الأعيان، وأعز من إنسان عيون الأجنان، أن مقلّة العين) في اللغة هي: الشحمة التي تجمع السواد والبياض، سميت بذلك من قولهم: مقلت الرجل في الماء: إذا غوصته فيه، وتماقل الرجل في الماء: إذا غاص فيه، وتماقل الرجلان في الماء: إذا تغاوصا فيه؛ ليعلم أيهما أصبر على الغوص، فلما كانت حبة العين غائصة في مائها سميت: المقلّة، ويقال: ما مقلت عيني مثل فلان: أي: ما نظرت، قال الشيخ شهاب الدين أحمد الحاجبي:

لها عين غزل وغزل مكحلة، ولي عين تباكت
وحاكت في فعالها المواضي فيا لك مقلّة غزلت وحاكت

و(الحدقة): هي السواد الأعظم (في العين)، سميت بذلك لأن البياض محقق بها، ويقال: أحقق القوم به وحدقوا به — لغتان — أي أطافوا به من جميع نواحيه. وقال الشريف الرضي:

يا قلب مالك لا تفيق وقد رأيت عيناك كيف مصارع العشاق؟
فتكت بك الحدق المراض ولم تزل تشجي القلوب جناية الأحداق

و(الناظر): السواد الأصغر الذي يبصر فيه الرائي شخصه، والعرب تقول: هو مثالها، وإنسانها، ودوابها، وناظرها، وبصرها، وضيئها، وغيرها ولعبتها، ويؤبؤها، وتمثالها، وسوادها، وحبها، ومذلكها.

قال ابن مطرف: وهذه الأسماء كلها لموضع البصر الذي في حاسة البصر، والجمع: نواظر، وليس الذي يرى الرائي صورة نفسه في ذلك الماء لصفائه، ويستدل على صحة الحاسة بما تخيل فيه.

و(الناظران) أيضًا: عرقان في العين يسقيان الأنف، يقال إنه لمرتفع الناظرين، ويقال للذي استحيى من أمر: خفض له ناظره، والناظر يجمع على: نواظر. قال شارح كتاب «الفصيح»: نظرت لعيني ونظرت: انتظرت وتنتظرت. و(نظرتُ) بمعنى: رحمت وتفكرت. وأنظرت الرجل: أخرته، وأنظرته: جعلته ينتظرنى، وقوله تعالى: (انظرونا) أي: أمهلونا: قال الشيخ برهان الدين القيراطي:

يا قاتلي بنواظر أجفانها بسيوفها الأمثال فينا تضرب
قل للغزال أو الغزالة إذ رنت أو لاح يهرب ذا، وتلك تغيب

و(الحماليق): هي بواطن الأجفان، واحدها حملاق، قال ابن مطرف: هي التي تراها — إذ قلبت للكحل — محمرة. وقال الزبيدي: الحماليق: نواحي العين، ويقال لمؤخري العينين مما يلي الصدغين: الحقيمان، الواحد حقيم. والأشفار: هي حروف الأجفان التي نبت عليها الشعر، والواحد: شفر، ومنه شفير الوادي، وشفير كل شيء حرفه. قال الشيخ جمال الدين بن نباته:

إذا كان شفر العين فوق محلها فعندي أنا الأشفار خير من العين

و(الأهداب): الشعر النابت عليها، واحدها: هذب بضم الهاء وسكون الدال المهملة، قال الشيخ برهان الدين:

أهداب لحظك للورى شرك فمن أوثقته فيهن لا يتفلت
كيف النجاة ورمح قدك مشرع؟ كيف الخلاص وسيف لحظك مُصلت؟

و(المحجر): ما دار بالعين، وهو ما يبدو من البرقع والنقاب، وجمعها محاجر، ويقال: محجر بفتح الميم وكسرهما، وفتح الجيم وكسرهما أيضًا، وإنما سمي المحجر محجرًا لأنه مفعول من الحجر وهو المنع، فكأنه مانع عن العين من جميع جهاتها، ومنه الحجرة المحيطة بالجدر، والجمع: الحجرات.

قال الأمير سيف الدين المشدّ وأجاد:

إن العيون لك الحصون: فهدبها شرفاتها، وجفونها الأسوار
وكذا محارها: الخنادق حولها والحافظون بها هم الأنوار

و(الماق) و(الموق): هو طرف العين مما يلي الأنف، وهو مخرج الدمع من العين، ولكل عين موقان، وفي الموق وفي جمعه لغات كثيرة يقال: ماق بالهمز، وجمعه أماق، وموق غير مهموز، وجمعه أمواق وأمواق وماق. والمقية: لغة في الماق أيضاً، والجمع مقى. والماق: مقدمها. وقيل: الموق: مؤخر العين، وماق يجمع على مواق مثل: قاض، وقواض، وفي الحديث: «كان يكتحل من قبل موقه مرة، ومن قبل ماقه أخرى».

قال المنتبي يمدح كافور الأحمدي:

قواصد كافور توارك غيره ومن ورد البحر استقل السواقيا
فجاءت به إنسان عين زمانه وخلت بياضاً خلفها و(أماقيا)

و(الألحاظ): جمع لحظ: وهو مؤخر العين الذي يلي الصدغ وجمعه لحاظ، ولواحظ. فأما اللحظة: فهي النظرة، وجمعه: لحظات في القليل، واللحظ في الكثير، ويجوز أن يجعل موضع اللحظة. يقال: لحظ العين مثل: رأي العين، ويقال: لحظ السماء بطرفه يلحظ لحظاً فهو لائحظ.

قال شيخ الشيوخ الأنصاري بحماسة:

يا نظرة قد جلت لي حسن طلعتة حتى انقضت وأدامتنا على وجل
عاتبت إنسان عيني في تسرعه فقال لي: خلق الإنسان من عجل

و(الطرف): هو ما مال بأحد السوادين: السواد الأعظم، والسواد الأصغر. قال ابن مطرف: «طرف العين تحرك أشفارها»، ويقال: طرفة عين، والعين المطروفة منه مأخوذ، وهو أن يصيب سوادها شيء فيتأذى صاحبها به، وربما أبطلها، وهي «الطرفة»، قال الشيخ علاء الدين الوداعي:

العيون

كم دماء مطلولة في هواه وبها ورد خده مطلول
وحديث من السقام صحيح قد رواه عن طرفه مكحول

و(القبل): هو ميل الحدقة في النظر إلى الأنف، وأنشد الثعالبي — وقد استحسنته في
«فقه اللغة» له — قول ذي الرمة:

أشتهي في الطفلة القبلا لا كثيرًا يشبه الحولا

وقال جرير:

وما زالت القتلى تمج دماءها بدجلة حتى ماء دجلة (أشكل)

وقول علاء الدين البديوي:

أنا جدُّ أنصار النبي لأنني يا أزرق العينين عبد (الأشهل)

وأنشدني المولى أبو الفتح محمد الرسام الأزهري:

رنت رمت فأصابت قلبي، وأذكت لهيبه
فهو المصاب بعين (شهلاء) وهي المصيبة

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

وأغيد كل شيء فيه يعجبني كأنما هو مخلوق على شرطي
أجفانه السود ما تخطي إذا رشقت سهامها، وسهام الليل ما تخطي

وقال علاء الدين الوداعي:

رمتني سود عينيه فأصممتي، ولم تبطي
وما في ذاك من بدع سهام الليل ما تخطي

وقال شهاب الدين الزعفريني:

ملك على العشاق، سكران طرفه
فلا عجب للّحظ منه يعربد
شكوت إليه أسر قلبي في الهوى
فوقع لي: سحر الجفون يخلد

وقال بشار بن برد:

يا من برايق ريقه يحيي الورى
وبسحر عينيه النواعس تقبل
من سحر عينيك المهامة تعلمت
وكذلك الغزلان منها تغزل

وقال ابن عباد:

ونظرن من خلل الستور بأعين
مرضى يخالطها السقام صحاح

وله أيضاً:

وسنان قد خدع النعاس جفونه
فحكى بمقلته ذبول النرجس
مذ غصّ طرفاً بالحياء فإنني
منه استحيت بأن أقبل مؤنسي

وقال الغزيّ:

كأنما سواد عين منيتي
مع علمكم بأنها لوامه
لا تنكروا مقاتلي تجاهلاً
كعنبر يا أنفساً لوامه

وقال الشهاب بن القطان:

شاقني (مارس) فول
وابتغى التعريض، قلنا:
زهره حاكي عيونك
لعن الله قرونك

آفة النظر وغائلته

وكنت إذا أرسلت طرفك زائراً
لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر
عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ولأبي العباس الصيني:

قم فاسقني بين خفق الناي والعود
كأساً إذا أبصرت في القوم محتشماً
نحن الشهود وخفق العود خاطبنا
ولا تبع طيب موجود بمفقود
قال السرور له قم غير مطرود
نزوح ابن سحاب بنت عنقود

وله أيضاً:

يقر الله عينك يا جفوني
ويا عيني لك البشري فنامي
فقد أعتقت من رق السهاد
رغبت عن الهوى وهربت منه
وتهنيك السلامة يا فؤادي
إليك وكنت دهري في جهاد

وله أيضاً:

سقتني لتروي الراح روحاً وحققت
على نرجس حيث به فكأنها
مواعيدها ذات الوشاح بإنجاز
أناملها انضمت على حدق البازي

وله أيضاً:

إذا ضاق صدري وخفت العدا
فبالله نبليخ ما نرتجي
تمثلت بيتاً بحالي يليق
وبالله ندفع ما لا نطيق

وله أيضًا:

يغيب البدر يومًا ثم يبدو
إذا لم تطلع الاثنين عصرًا
فمالك غبت عن عيني ثلاثا
فلست بواجدي يوم الثلاثاء

وله أيضًا:

ولقد مررت على الظباء وصادني
فغذت لواحظه إلي بأسهم
ظبي وعهدي بالظباء تصاد
أغراضها الأرواح والأجساد

وله أيضًا:

صبّ المداد وما تعمد صبه
يا من يؤثر حبره في ثوبنا
فتورد الخد البديع الأزهر
تأثير لحظك في فؤادي أكثر

وله أيضًا:

من شاء عيشًا رخيًّا يستفيد به
فلينظرن إلى ما فوقه أدبًا
في دينه ثم في دنياه إقبالاً
ولينظرن إلى من دونه مالا

وله أيضًا:

أدرك بقية نفس روحها رmq
وإنما سلمت منها بقيتها
وقد أذابت هموم النفس أكثرها
لأنها خفيت ضعفاً فلم ترها

وله أيضًا:

ألا حل بي عجب عاجب
رأيت الهلال على وجه من
تقاصر وصفي عن كنهه
رأيت الهلال على وجهه

العيون

وقال آخر في شوق إلى حبيب:

إن غبت عن ناظري فأنتم في القلب يا غاية التمني
والظن أن لا تخون عهدي لا خيب الله فيك ظني

هوامش

(١) في لوعة الشاكي ودمعة الباكي.

تعدد الزوجات والأزواج

هند وأبو سفيان^١

كان مسافر بن عمرو بن أمية يهوى هندًا بنت عتبة بن ربيعة، وله فيها شعر يغني به، فلما فارقت زوجها الفاكه بن المغيرة خطبها إلى أبيها، فلم ترض ثروته وماله، فوفد على «النعمان» يستعينه على أمره، ثم عاد فكان أول من لقيه أبو سفيان، وعلم منه أنه تزوج هندًا.

وكان مسافرًا من أحسن فتیان قريش جمالًا وشعرًا وسخاء، وقد عشق هندًا وعشقتة، فاتهم بها، وقال بعض الرواة: إنها حملت منه، فلما بان حملها أو كاد، قالت له: اخرج، فخرج حتى أتى الحيرة، وأقام عند عمرو بن هند ينادمه، ثم أقبل أبو سفيان بن حرب إلى الحيرة في بعض ما كان يأتيها ولقيه مسافر، فسأله عن قريش، فكان مما قال له: أنه تزوج من هند بنت عتبة؛ فدخله من ذلك ما اعتل معه، حتى استسقى بطنه. وروى معروف بن خربوذ أن مسافرًا قال في ذلك:

ألا إن هندًا أصبحت منك محرماً
وأصبحت من أدنى حموتها حمى
وأصبحت كالمقمور جفن سلاحه
يقلب بالكفين قوسًا وأسهما

حكمة التعدد في الإسلام^٢

إنه لمعلوم أن جميع كلام النبوة شرح للقرآن، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، وإذا تتبعنا القرآن العظيم لم نجد ذكر المؤمنين إلا ومعهم المؤمنات، ولا المسلمين إلا ومعهم المسلمات، ولا الصائمين إلا ومعهم الصائمات، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا﴾، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة وما فيها، وهكذا في غير ما آية.

ومن اطلع على موضع ذلك من المصحف الشريف فسيقف بنفسه على ما ذكر، فالكتاب والسنة والإجماع على أن للنساء ما للرجال من الثواب، وعليهن ما عليهم من العقاب، لا فرق بين حر ورقيق، ومولى وعتيق.

وقال ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا فَحَفِظَتْ غَيْبَتَهُ فِي نَفْسِهَا، وَطَرَحَتْ زِينَتَهَا، وَقِيدَتْ رِجْلَهَا، وَأَقَامَتِ الصَّلَاةَ، فَإِنَّهَا تَحْشُرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذْرَاءَ طِفْلَةٍ، فَإِنْ كَانَ زَوْجُهَا مُؤْمِنًا فَهُوَ زَوْجُهَا فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ زَوْجُهَا مُؤْمِنًا زَوْجُهَا اللَّهُ مِنَ الشَّهَادَةِ»، فكيف يتوهم ممن اتصف بالعدل فضلًا عن اتصافه بالفضل أن يضيع عمل عامل، أو يحرم الراجي فضله الشامل؟

وهنا تعرض مستشرق إنكليزي في سياق حديث رواه المؤلف وقال: لو علمت نساء أوروبا بقولك لأحببن دين الإسلام، لكن ربما يمنعهن شيء آخر أشق عليهن من كل شيء، وأضر ... هو اتخاذ الرجل منكم عددًا من الزوجات.

وردّ على المستشرق بأنه لا دخل لتعدد الزوجات ولا لدين النصرانية في إحياء العلوم الأدبية، ولا تقدم الفنون والصنائع الدنيوية، ولو كان الأمر كذلك لما احتاج الأوروبيون إلى اليونان ومن بعدهم من العرب في الوصول إلى ما وصلوا إليه، فالعرب للأوروبيين في كل ما علموه ملاذ، واحتياجهم إليهم كاحتياج المتعلم إلى الأستاذ.

وأما ما كان من أمر تعدد الزوجات فليس هذا خاصًا بالمسلمين، بل هو عام لهم ولغيرهم، ولم يمنعه إلا طائفة النصارى فقط، حتى إن من قبلهم كانوا يجوزون التعدد

أيضاً، فقد رأيت في بعض كتب التواريخ نقلاً عن دانيال القسيس أن ملوك فرنسا الأولين كانوا متزوجين بزوجات متعدّدات، مع أنهم كانوا متدينين بدين النصرانية؛ ومن ثمّ كان لكل من غنطران وشربير وداغوبير الأول ثلاث زوجات، ولعم داغوبير، وهو فلودمير أربع زوجات في آن واحد.

وفي سنة سبعمائة وست وعشرين من الميلاد كتب البابا غرينور الثالث إلى الواعظ بدسقاس حين أرسل إليه ليسأله عن جواز التزوج بامرأة ثانية: «إذا أصيبت المرأة الأولى بداء يمنعها عن القيام بحقوق الزوج، جاز له أن يتزوج بامرأة أخرى، وعليه للمصابة مؤنّها الضرورية».

ولعل الحكمة من إباحة تعدد الزوجات عند المسلمين، وعند كل من كان على رأيهم أن التدبير الإلهي لما ميز الرجل بقوة البنية، وطول زمن التناسل بالنسبة للمرأة، وسلامته من الأعدار المعتادة للنساء في أوقات معينة — كالحيض والنفاس — راعى الشرع جانبه لذلك.

وأما حكمة الأفراد التي عول عليها النصارى، واستندوا إليها في الحكم فلا يمكن الجزم باطرادها في كل طبيعة، ولا بأنها تقطع ما يخشونه من المفساد؛ فقد أتى زمن يمنع فيه كثير من الأمور الفظيعة التي لا وجود لها في بلادنا، كقتل الأطفال، وإسقاط الأجنة، ونحو ذلك.

فقال المستشرق الإنكليزي: هذا كلام معقول، لكن نظرت في المصحف مرة فرأيت في السورة الثالثة ما ظاهره الأمر بضرب النساء، مع أنه يُجَلُّ بشرف الإنسانية.

فكان الجواب أن هذا لا يوجد إلا إذا علم الزوج منها خلاف ما يعهد، على أنه ليس له ذلك من أول الأمر، بل يستعمل معها النصيحة، فإن أبت فله أن يؤدبها بالهجر، فإن لم يُجِدِ الهجر ضربها، بشرط ألا يضر بها، وألا يخرج على حسن العشرة المأمور به في القرآن، الذي جعل التشديد عليهن مذمومًا، وصير من عاقبهن على كل ما فرط منهن ملومًا، كقوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ ۖ فِإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

وكقوله الرسول ﷺ: «احملوا النساء على أخلاقهن»، وقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «ينبغي للرجل أن يكون في بيته كالصبي، فإذا طلب ما عنده وجد رجلاً». وقال بعض الصحابة للنبي ﷺ: «ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». ومعنى لا تقبح: لا تسمعها المكروه، ولا تشتمها، أو لا تقل لها: قبحك الله، ونحو ذلك.

وفي القرآن الكريم عدا ذلك كثير مما يعظم أمر النساء، ويوجب رعايتهن، والمبادرة إلى القيام بحقوقهن، وهل حرية النساء إلا أن يبلغن حقوقهن على أزواجهن حسبما تقتضيه المروءة، وصيانة النساء عن الدخول فيما ليس لهن من خصائص الرجال. وليس فيما يقبل العقل المنزه عن المعصية أن تكون حرية النساء عبارة عن تخليتهن وما اشتھين، مع ما يشاهد في الأكثر من غلبة شهواتهن وأهوائهن على عقولهن.

المرأة التي تزوج عليها زوجها

في «سبحة المرجان»^٢ أشعار عن غيرة المرأة التي يتزوج عليها زوجها، منها قول ابن المعتز:

خبروها بأنني تزوجت فظلت تكاتم الغيظ سرًا
ثم قالت لأختها، ولأخرى جزعًا: ليته تزوج عشرا
وأشارت إلى نساء لديها لا ترى دونهن للسر سترًا
ما لقلبي كأنه ليس مني وعظامي أخال فيهن فترا

عدم زواج الرجل بمن يهواها

معلوم أن العرب^٤ كانوا لا يزوجون الرجل بمن يهواها، وكان يتحاشى السلام عليها لئلا يعرف بها.

قال أبو رياش: كان الرجل إذا عرف بحب امرأة لم يزوجه إياه، وكان إذا سلم عليها عرف أنه يهواها، وقد يسلم عليها وإن كان في السلام بأس منها، وهذا من إفراط شوقه، وغلبة هواه.

رؤية الرجل المرأة عند تزوجها^٥

قال الأصمعي: الحسن في العينين، والجمال في الأنف، والملاحة في الفم. وقالت امرأة خالد بن صفوان له: إنك لجميل يا أبا صفوان. فقال: كيف وليس عندي رداء الجمال، ولا برنسه ولا عموده. إن رداءه البياض وأنا آدم، وعموده الطول وأنا ربعة، وبرنسه سوداء الشعر وأنا أشمط، ولكن قولني: إنك مليح ظريف.

وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَطَبَ امْرَأَةً، فَأَرْسَلَ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) لِتَنْظُرَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهِ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ طَائِلًا. فَقَالَ: بَلَى، لَقَدْ رَأَيْتُ خَالًا فِي خَدِّهَا اقشَعَرَتْ مِنْهُ كُلُّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِكَ.

وقالت عائشة (رضي الله عنها) تصف شعورها حينما رأت جويرية بنت الضحاک لأول مرة: والله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها. وفي ذلك ما يدل على ما كان عليه أزواج النبي ﷺ من الغيرة عليه، والعلم بموقع الجمال عنده.

أما نظره عليه الصلاة والسلام إلى جويرية حتى عرف من حسنها ما عرف، فذلك لأنها كانت مملوكة، لو كانت حرة ما ملأ عينيه منها؛ لأنه لا يكره النظر إلى الإماء. وجاءت أن يكون نظره إليها لأنه نوي تزوجها.

وَرُوِيَ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ نَفْسِي لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَصَعِدَ فِيهَا النَّظَرُ ثُمَّ صَوَّبَ، ثُمَّ أَنْكَحَهَا مِنْ غَيْرِهِ.

وثبت عنه — عليه الصلاة والسلام — الرخصة في النظر إلى المرأة عند إرادة نكاحها، وقال للمغيرة حين شاوره في نكاح امرأة: «لو نظرت إليها فإن ذلك أحرى أن يؤدم بينكما». وقال مثل ذلك لمحمد بن مسلمة حين أراد نكاح بثينة بنت الضحاک.

وقد أجازاه مالك في إحدى الروايتين عنه، ذكرها ابن أبي زيد. وفي مسند البزار: «لا حرج أن ينظر الرجل إلى المرأة إذا أراد تزوجها وهي لا تشعر». وفي تراجم البخاري في باب النظر إلى المرأة قبل التزويج أن النبي — عليه الصلاة والسلام — قال لعائشة (رضي الله عنها): أريتك في المنام يجيء بك الملك في سرقة من حرير، فكشف عن وجهك، فقال لي: هذه امرأتك. فقلت: إن يكن من عند الله يمضه. وهذا استدلال حسن. وفي قوله: إن يكن من عند الله سؤال؛ لأن رؤياه وحى، فكيف يشك في أنها من عند الله؟ والجواب: أنه لم يشك في صحة الرؤيا، ولكن الرؤيا قد تكون على ظاهرها، وقد تكون لمن هو نظير المرء أو سميته، فمنها هنا تطرق الشك ما بين أن تكون على ظاهرها، أو لها تأويل.

وسمعت شيخنا يقول في معنى هذا الحديث: لا يخلو نظره عليه الصلاة والسلام إليها من أحد الأمرين، أو يكون ذلك قبل أن يضرب الحجاب، وإلا فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾.

والنبي ﷺ هو بغير شك إمام المتقين، وقدوة الورعين. وجويرية هي بنت الضحاک بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ، وتوفيت في شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين أم خمس وخمسين من الهجرة.

رايات من خمر النساء^٦

وجّه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عتبة بن غزوان والياً على البصرة، وقال له: يا عتبة، إني قد استعملتك على أرض الهند، وهي حومة من حومات العدو، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها، ويعينك عليها ... فإذا قدم عليك العدو، فاستشره، وادع إلى الله، فمن أجابك فاقبل منه، ومن أبى فالجزية، وإلا فالسيف، واتفق الله فيما وليت، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر مما يفسد عليك إمرتك، وقد صحبت رسول الله ﷺ فعززت به بعد الذلة، وقويت به بعد الضعف، حتى صرت أميراً مسلطاً، وملكاً مطاعاً، تقول فيسمع منك، وتأمّر فيطاع أمرك، فيالها من نعمة؛ فاحتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، ولهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم، أعيدك بالله ونفسي من ذلك، إن الناس أسرعوا إلى الله حتى رفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرد الله ولا ترد الدنيا، واتفق مصارع الظالمين. انطلق أنت ومن معك حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم، فأقيموا، فسار عتبة ومن معه، وأقام بالبصرة، ثم سار عتبة بالمسلمين إلى أن لقيهم جيش عظيم من الفرس، فاقتتل الفريقان.

وقال نساء المسلمين: لو لحقنا بهم فكنا معهم، فاتخذن من خمرهن رايات، وسرن إلى المسلمين؛ فلما رأى المشركون الرايات، ظنوا أن مدداً للمسلمين قد أقبل، فانهزموا، وظفر بهم المسلمون!

كشف وجه المرأة في الإحرام

قالت عائشة (رضي الله عنها):^٧ لو علم رسول الله ﷺ ما أحدث النساء، لمنعهن من المساجد.

وسئل عقيل عن كشف المرأة وجهها في الإحرام، مع كثرة الفساد في زمانه: أهو أولى أم التغطية مع الفداء؟ فأجاب: بأن الكشف شعار إحرامها، ولا يجوز رفع حكم ثبت شرعاً لحوادث البدع.

وأما قول عائشة (رضي الله عنها) فإنها ردّت الأمر إلى صاحبه فقالت: لو علم لمنع، ولم تمنع هي.

وقد ندب الشرع إلى النظر إلى المرأة قبل النكاح، وأجاز للشهود النظر، فليس ببدع أن يأمرها بالكشف، ويأمر الرجال بالغض ليكون أعظم للابتلاء.

وإنما جاء النص بالنهي عن النقاب خاصة، كما جاء النهي عن القفازين، وعن لبس القميص والسراويل، ومعلوم أن نهيه عن لبس هذه الأشياء لم يرد أنها مكشوفة لا تستر البتة، بل قد أجمع الناس على أن المحرمة تستر بدنها بقميصها ودرعها، وأن الرجل يستر بدنه بالرداء، وأسافله بالإزار.

ومن قال: إن وجه المحرمة ك رأس المحرم، فليس معه بذلك نص. وقول من قال من السلف: إحرام المرأة في وجهها إنما أراد به أنه لا يلزمها اجتناب الناس كما يلزم الرجل، بل يلزمها اجتناب النقاب، فيكون وجهها ك بدن الرجل.

وقد قالت عائشة (رضي الله عنها): كنا إذا مر بنا الركبان سدلت إحدانا جلبابها على وجهها، ولم تكن إحداهن تتخذ عودًا تجعله بين وجهها وبين الجلباب كما قال بعض الفقهاء، ولا يعرف هذا من امرأة من نساء الصحابة، ولا أمهات المؤمنين البتة، لا عملاً ولا فتوى، ويستحيل أن يكون هذا من شعار الإحرام، ولا يكون ظاهرًا مشهورًا يعرفه الخاص والعام.

ومن أثر الإنصاف، وسلك سبيل العلم والعدل تبين له راجح المذاهب من مرجوحها، وفاسدها من صحيحها، والله الموفق الهادي.

المرأة لعبة زوجها^١

البيضة المكنونة^٢ بيضة النعام، ويشبه بها النساء لبياضها، والصفرة التي تضرب فيها. قال ذو الرمة:

«كأنها فضة قد مسها ذهب»

والمكنونة: المصونة، والنعامه تخفيها بريش، ولا تبديها للشمس والريح لئلا تتغير. وقال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

وعن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ أنه قال: «المرأة لعبة زوجها، فإن استطاع أحدكم أن يحسن لعبته ليفعل».

والمداعبة: الممازحة، والمغازلة، تقول: غازلتني المرأة: إذا تماجنت عليك في كلامها، وأشارت لك بعينها، وغزتك بحاجبها حتى إذا طمعت فيها صدت عنك ... والمليحة الصورة: المستلحة، كالدمى والصور التي تلعب بها البنات ونحوها.

مات زوجها فتزوجت!

يروى أن امرأة من مدينة «يشكُر» اسمها «أم عقبة» كانت عند ابن عم لها يقال له «غسان»، وأنه سألها عما تصنع بعد موته، فقال:

أخبري بالذي تريدين بعدي والذي تضميرين يا أم عقبة
تحفظين من بعد موتي لما قد كان مني من حسن خلق وصُحبه
أم تريدين ذا جمال ومال وأنا في التراب في سجن غربه

فقالت له: والله لا أجيبك بكذب، ولأجعلنه آخر حظي منك، وأنشدته:

قد سمعت الذي تقول وما قد يا ابن عمي تخاف من أم عقبة
سوف أبكيك ما حييت بنوح ومراث أقولها أو بئدبه

فلما سمعها أنشأ يقول:

أنا والله واثق بك لكن احتياطاً أخاف غدر النساء
بعد موت الأزواج يا خير من عو شر فارعي حقي لحسن الوفاء
إنني قد رجوت أن تحفظي العهـ د فكوني إن مت عند الرجاء

ثم اعتقل لسانه فلم ينطق حتى مات، فلم تمكث بعده قليلاً حتى خطبت من كل جانب، رغب فيها الأزواج لاجتماع الخصال الفاضلة فيها، فقالت مجيبة لهم:

سأحفظ غساناً على بعد داره ونرعاه حتى نلتقي يوم نحشر
وإني لفي شغل عن الناس كلهم فكفوا فما مثلي بمن مات يغدر
سأبكي عليه ما حييت بدمعة تجول على الخدين تهمني فتهمرُ

فلما تطاولت الأيام تناست عهده وقالت: من مات فقد فات.

فأجابت بعض خطابها فعقد عليها، فلما كانت الليلة التي أراد الدخول بها أتاها
أت في منامها فقال:

عقدت ولم ترعي لبعلك حرمة ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي العهدا
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحب حلفت له بتاً ولم تنجزني الوعدا
غدرت به لما ثوى في ضريحه كذلك ينسى كل من سكن اللحدا

فلما سمعت هذه الأبيات انتبهت مرتاعة كأن غسان معها في جانب البيت، وأنكر
ذلك من حضرها من نساءها، فأنشدتهن الأبيات، فأخذن معها في حديث لينسينها ما هي
فيه، فغفلتهن وأخذت مدية، فلم يدركنها حتى ذبحت نفسها، فقالت امرأة منهن:

لله درك ماذا لقيت من غسان
قتلت نفسك حزناً يا خيرة النسوان
وفيت من بعد ما قد هممت بالعصيان
وذو المعالي غفور لسقطة الإنسان
إن الوفاء من الله لم يزل بمكان

وفاء عائشة بنت طلحة لزوجها المتوفى

قالت امرأة حاكية: كنت عند عائشة بنت طلحة يوماً، فقيل لها: هذا الأمير قد جاء،
فتنحيت، ودخل عمر بن عبد الله زوجها فلما خرج من عندها رأيته وكأنما أوتي ملك
سليمان.

ويقال: إن رملة بنت عبد الله — ضرة عائشة هذه — قالت لمولاة عائشة يوماً: أريني
مولاتك مجردة وأنا أعطيك ألفي درهم. فذكرت الجارية ذلك لعائشة، فقالت: أنا أتجرد
لها ولا تعلميها أنني عرفت، ثم قامت عائشة فتجردت كأنها تغتسل، وذهبت مولاتها
إلى رملة ضررتها فأخبرتها، فأشرفت عليها وتأملتها مقبلة ومدبرة وأعطت الجارية ألفي
درهم، وقالت: وددت لو أنني أعطيك أربعة آلاف درهم ولم أرها، وذلك لما راعها من
حسن جسدها البض، وتناسق جمال أعضائه المثيرة الفاتنة.

ولما مات عمر بن عبد الله زوج عائشة ندبته قائمة، دلالة على أنها لا تتزوج بعده.

روى الأصفهاني في كتابه «الأغاني» أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية استأذنت زوجها عبد الملك في الحج، فأذن لها وقال: ارفعي إلي حوائجك كلها، واستظهري فإن عائشة بنت طلحة تحج معك، فاستظهرت بكل ما تقدر عليه، وخرجت بهيئة حسنة قد اجتهدت فيها، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا ركب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها، وكان هو ركب عائشة بنت طلحة!

القبلة وإباحتها^{١١}

قالت طائفة من العلماء: القبلة مباحة لمن وصل إلى حد يخاف على نفسه من التلف في الحين، قالوا: لأن تركها قد يؤدي إلى هلاك النفس، والقبلة صغيرة، وهلاك النفس كبيرة، وإذا وقع الإنسان في مرضين داوى الأخطر، ولا خطر أعظم من خطر النفس، حتى أوجبوا على المحبوب مطاوعته على ذلك إذا علم أن ترك ذلك يؤدي إلى إهلاكه، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ...﴾، والحديث الذي يقول: يا رسول الله، إنني لقيت امرأة أجنبية فأصبت منها كل شيء إلا النكاح، قال: أصليت معنا؟ قال: نعم. قال: إن الله قد غفر لك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ﴾. رجع إلى المقاطيع: قال أبو الفرج الجوزي:

يا مانع القبلة من خده فتت قلبي فهو مفتوت
لا تخش أنفاسي ولا حرها فإنما خدك ياقوت

ولأبي الفضل بن أبي الوفا:

سألتها رشف ريق مستعذب الطعم حلوي
قالت: فصفه ارتجالاً فقلت: بعد التروي

تعدد الزوجات والأزواج

ولابن حجة:

وعاشق ألزم معشوقه قبلة
ولم يخف من جارحي لحظه
في فيه فيها شفاه
خطفًا وقد باس ولم يخطفاه

ولابن العطار:

جمعت بالراح شملي
وكم يد لك عندي
فالله يجمع شملك
دعني أقبل رجلك

ولآخر:

رأيت في مجلسي مليحًا
سألته قبلة بخدً
يشبه بدر الدجي وأحسن
فجاد بالوصل لي وأحسن

وقال آخر:

سألته قبلة ألد بها
فقلت: لم سيدي؟ فجاوبني:
فصدّ عني وقال سروالك
عاقبة البوس حل سروالك

ولآخر في «مشروط على الخد»:

بروحي مشروط على الخد أسمر
فقال على اللثم اشترطنا فلا تزد
وفا ودنا بعد التجنب والسخط
فقبّلته ألفًا على ذلك الشرط

ولبعضهم رحمه الله:

قال الحبيب وقد رشفت رضابه
أفطرت؟ قلت: نعم، رأيتك طالعًا
في يوم من رمضان لما زارا
وهلال وجهك يوجب الإفطارا

ولآخر عفا الله عنه:

قبّلت ميسمه فقال تذللًا عند اللقاء له ونحن صيام
أفطرت يا هذا، فقلت له: ابتدا ء الصوم مع رؤيا الهلال حرام

وقال آخر في الجناس:

إن كنت تألف بالحبیب وقربه فاصبر على جور الرقیب وداره
إن الرقیب إذا صبرت لحكمه ثواك في مثنوی الحیب وداره

محاسن الخلق والخُلق^{١٢}

عن وهب بن منبه أنه قال: قال موسى عليه السلام: أي رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: من أذكر برويته. وقال وهب: قال داود: يارب أي عبادك أحب إليك؟ قال: مؤمن حسن الصورة. قال: أي عبادك أبغض إليك؟ قال: كافر قبيح الصورة ...

وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ: إن الله جميل يحب الجمال. رواه عبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود، وجماعة. وعن حديث ابن حديج عن أبي مليكة، يرفعه: من آتاه الله وجهًا حسنًا، وخلقًا حسنًا، وجعله في موضع غير شائنٍ له، فهو من صفوة الله من خلقه.

وفي الصحيحين عن أبي بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر. وكان رسول الله ﷺ يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسن الوجه، حسن الاسم، وكان يقول: إذا أبردتم إليّ بريدًا فليكن حسن الوجه، حسن الاسم.

وفي مליح:

يا من له وجه بدت أنواره كالشمس عند طلوعها بل أشرق
لولا هواك لما جفا جفني الكرى ليلاً، وبت بدمع عيني أشرق

وفي آخر:

شبهت بالبدر الحبيب فقال لي: لا وجه للتشبيه، قلت: أما ترى
لاح به أثر الصبابة لايح وجه الحبيب؟ فقال: وجه واضح

وقال له:

وجه يفوق الهلال حسناً يقول في الحال من رآه
ويخجل البدر إن تجلّى أشهد أن لا مליح إلا

وقال آخر:

أحب من المردان كل مهفهفٍ إذا ما الشعر في خده بدا
رشيق المثنى لم يسر في خده الشعر فلا خير في اللذات من دونها الستر

وقال آخر:

أظهروا وجهك المليح لو أرادوا جنائتي
ثم لاموا من افتتن حجبوا وجهك الحسن

وقال آخر وأجاد:

يا من وهبتُ له روعي فعذبها أدرك بقية نفس فيك قد بلغت
ورمت تخليصها منه فلم أطق قبل الممات فهذا آخر الرmq

ولابن الخطيب في «الحسن»:

الدرُّ فوق جبينه يتوقد كتب الهوى بيد إليه يؤكد
والماء في وجناته يتردد بالحسن فوق جبينه يا واحد

وله أيضًا:

جفون معذبي يملأه
لكنني لم أنا عنه لأنه
منى وإن وداده تكليف
خير رواه الجفن وهو ضعيف

ولشهاب الدين بن ناصر الدين:

بي سقام من جفون
وعيون فاتكات
قد جفوني لست أبرأ
من سيوف الهند أبرأ

ولآخر:

كأن مقلته صاد، وحاجبه
فصرت أعبد منه في الهوى صنمًا
نون وموضع تقبيلاته ميم
وعابد الصنم الإنسي مخدوم

ولآخر في العيون:

يا من يشبه نرجسًا بنواظر
أين القياس لمن يصح قياسه
دعج تنبه إن فهمك راقد
بين العيون وبينه ذا ساعد

وقال أيضًا في ذلك:

وظبي إذا عاتبت ناعس طرفه
ألا فاشهدوا قتلي بسيف جفونه
يلذ لطرفي في دجى الليل شهده
ولا تقتلوه إنني أنا عبده

ولآخر في العيون السود:

عيونك السود إن مدت سوافها
وإن كان حبل الجفا سود معارفها
تحكم علي وما أقدر أخالفها
في وسط قلبي بنا لناس معالفها

ولآخر في ذلك:

كنت أشتهي بحبيبي ألف ناقة سود
أنزل إلى الحرب آخد عود وأعطى عود
وألف أخرى يكن جمالها مسعود
أسلم من الحرب تقتلني العيون السود

وفي من عينه زرقاء:

بعينه الزرقاء
وا عجبًا أحبه
في قلبي سهم مطلق
وهو العدو الأزرق

وفي أحول:

قالوا شغلت بأحول فأجبتهم
لا تحسبوا حولانه ... لكنه
قد زدتمو والله في أوصافه
من زهره يرنو على أعطافه

وفي من بعينه رمد:

جاء الحبيب وعيناه بها رمد
وقال أرجو علاجًا قلت واعجبًا
والنار في مهجتي تصلى بها كبدي
أسلّ سيفًا لقتلي في الهوى بيدي

وفي الوجنة الحمراء:

الطرف بعدك قد عادت مدامعه
والقلب في الوجنة الحمراء يا سكني
فهل تأذن لطيف منك يطرقه
كعابد النار يهواها وتحرقه

وفي مبتسم الثغر:

جاء بصبح ثغره مبتسمًا
قلت له: دمت لقلبي هكذا
يمشي بليل الشعر في دلال
ما دامت الأيام والليالي

وفي حبيب:

قال الحبيب يقول ثغري إنه
يا زيد خذ منه الحديث فإنه
ذو قرقف داء المحبة دافع
حسن رواه مالك عن نافع

وقال في أحور:

وأحور طرفي حاير في جماله
وعرنيته أقرنى أشم وطرفه
وقلبي، فقل لي ما الذي فيه أصنع
كحيل، وخذاه من الورد أصبغ

وفي لجلجة كلام المحبوب:

عابوا التلجلج في كلام معذبي
إن الذي ينسى الكلام لسانه
فأجبتهم والعذر فيه بيان
ولسانه من ريقه سكران

وفي معاينة حسن الحبيب:

لو عاينت عيناك حسن معذبي
عين الرشا، قد القنا، ردف النقا
ما لمتني ولكنك أول من عذر
شعر الدجى، شمس الضحى، وجه القمر

ولابن مبارك:

يا أيها العشاق قد جاءكم
أجيّد إتلاف روح امرئ
متيم يسأل كي يهتدي
على مليح في الهوى أم ردي

وقال آخر في من بيده مديّة:

وشادن في يده مديّة
ما كان محتاجًا إلى حملها
جردها للفتك من غمدها
فلحظه أقطع من حدها

تعدد الزوجات والأزواج

ولأبي نواس في أحور ساحر العينين:

وساحر العينين مسحور
وتختاره نحن على الحور
ويلي على أحور ممكور
وتختاره الحور علينا كما

وفي من يبكي!:

يا قمرًا أبصرت في مأتَم
لا تبك للميت يا سيدي
يندب شجواً بين أثواب
وابك قتيلاً لك بالباب

وفي من ينظر في المرأة:

وإذا أراد بأن ينزه طرفه
فكأنه وكأنها في كفه
أخذ المرأة بكفه فتفرجا
شمس الضحى قد قارنت بدر الدجى

وفي قواس:

قالت لقوأس له طلعة
يا من له وجه كبد الدجى
من رام عنها الصبر لم يقدر
بكم تبيع القوس للمشتري؟

وللأزميري في رام:

بأبي وأمي رامياً يسبي الحشا
لما أراد إطلاق سهم رامياً
بلواحظ تسطو على العشاق
زاد الورى عشقاً على الإطلاق

وفيه أيضاً:

رمى عن قوسه في الطير سهماً
وفوق نحو قلبي سهم طرف
على عجلٍ ولم يمهل رويدا
فلم يخطي بسهميه السويدا

وفي رمال:

وزارب بالرمل من حسنه
كأن من أبدع في خلقه
مستخرج في الرمل أشكال
يزدحم الناس على رمله
قد خلق العشاق من أجله
وما يريدون سوى شكله

ولابن الوردي في ذلك:

حكى القضيبي والقنا
وقال وصلي غفلة
بالرمل والأنامل
إلا بفيض داخل

وقال في منجم:

ورب منجم قد صدّ عني
فقلت عساك ترجع عن قريب
ولي أبداً بطلعته ولوع
فقال الشمس ليس لها رجوع

ولابن المزين في تاجر:

وتاجر شاهدت عشاقه
قال على ما اقتتلوا هكذا
والحرب فيما بينهم تسائر
قلت على عينك يا تاجر

وللأزميري في تاجر أيضاً:

وتاجر يمنح عشاقه
ما ردّ يوماً منها زائراً
مألاً ووصلاً ليرى نادره
لأنه متسع الدايره

وله في شاعر:

لا تعذلوني إذا عشقت شاعراً
فهو البديع حسنه لكنه
في فيه نظم الدرّ يا رفاقي
يميل للترصيع في الطباقي

ولآخر في الخد:

بدا في الخد عارضه فأضحى عليه مفيض باللوم يغري
وحلول أن يرى مني سلواً فقال: لقد تعذر. قلت: صبري

ولآخر ... اقتباس في مَنْ في خده عذار:

رأيت في خده عذاراً خلعت في حبه عذاري
قد كتب الحسن فيه سطرًا ويولج الليل في النهار

ولابن المعتز في ذمّه وهجره:

يا رب إن لم يكن في وصله طمع ولم يكن قدح من طول هجرته
فاشف السقام الذي في جفن مقلته واستر محاسن خديه بلحيته

وله أيضاً عفا الله عنه:

ها قد غدا في ثياب الشعر في كفن وقد تعفت معاني وجهك الحسن
وكان يعرض عني حين أبصره فصرت أعرض عنه حين يبصرني

وقال آخر:

لما التحى ومحا الإله جماله وكساه ثوب مذلة ونفاق
كتب الزمان بخطه في خدّه هذا جزاء معذب العشاق

وقال آخر:

غدا أسوداً بالشعر أبيض وجهه فأصبح من بعد التنعم في ضنك
على وجهه أضحى بخطي عذاره تناديهما عيناه حزناً: قفا نُبُك

ولآخر ... اقتباس:

أذهب الله حسنَه والجمالاً
وكلَى اللهُ المؤمنين القتالاً
قتل الناس باللواحق حتى
طلعت ذقنه وعيناه كلت

وآخر ... مثله:

بشرت قلبي بالسلو المقيم
فجاءني منه عذاب أليم
لما بدا في خده عارض
وقلت غداً عارض ممطر

وقال آخر أيضاً:

وأباد السواد ضوء نهاره
كل من مات سؤدوا باب داره
قلت لما تشركت عارضاه
إيش هذا فقال لي في جوابي

ولابن نباتة:

بدله بعض الضيا بالظلم
ليعلموا كيف زوال النعم
وأمرد مقتته ربه
أرسله الله لنا آية

وله أيضاً رحمه الله:

دارت عذار حبيبي
فياله حسن وجه
حتى غدا وهو حاير
دارت عليه الدواير

وقال آخر:

وخلصني من يدي عشقه
كنست فؤادي من حسنه
ظلام على خده حنسه
ولحيته كانت الممكنسه

وقال آخر والله در قائله:

ما فعل الله باليهودي ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون من عصاه ما فعل الشعر بالخدود

ما قيل في الأسماء^{١٣}

في محمد بن عربي:

أحمد عسك تشهد لي أني قتيل عيونك النّجل
فقت الملاح فأنت خاتمها وكذا سميك خاتم الرسل

وفيه أيضًا:

قالوا تشفّع بالجمال ولو تثبت كان أجود
فأجبت إنني مسلم أرجو الشفاعة من محمد

ولابن العفيف:

أيها المودّع قلبي نار وجد تتوقد
كيف تستاهل نارًا مهجة تهوى محمد

وفي أحمد:

قد غدا أحمد لي ما أجود وكان بالوصل لنا ينجد
وإن يعد يرضى لعشاقه فالوصل يا أحمد لي أحمد

وفيه أيضًا:

مذ وفا أحمد وعدي
فأنا في كل حال
ولهيب الشوق أحمد
أشكر الله وأحمد

آخر والله در قائله:

ولقد قنعت من الحبيب بنظرة
قالوا فمن شئت تحب؟ فأجبتهم
أطفي بها ناري التي لا تخمد
غصن النقا بدر الدجى يا أحمد

وفي أبي بكر:

تعشقت ظبيًا فاتن اللحظ فاترا
فلا تنكروا وجدي فإنني محمد
أبو بكر يدعى خليفة طلعة البدر
وإنني من أولى الورى بأبي بكر

وفيه أيضًا:

بروحي أبا بكر فديت ومهجتي
له طلعة كالبدر والغصن قدّه
مليحًا ببدر التّم في أفقه يذري
وناظر من بابل جاء بالسحر

وللحجازي فيه أيضًا:

بمدح أبي بكر سموت فيا له
ولا بدع إذ بالغت في مدحه إذًا
مليح أرانا وجهه صورة البدر
فأحمد من أولى الورى بأبي بكر

ولشهاب الدين التلميح، وأنشده لنفسه:

من حبيبي ووفاء
ولا عجيبيًا من أبي
وعدًا له وحققه
بكر الوفا ما أصدقه

تعدد الزوجات والأزواج

وفي عمر:

ما عليهم في الهوى إذ نظروا
أبدلوا قافك عيناً غلطاً
حين سموك وقالوا: عمر
أخطأوا ما أنت إلا قمر

وفي عثمان:

وافى إليّ بشمعتين ووجهه
ناديت ما الاسم؟ يا كلّ المنى
بضيائه يزهو على القمرين
فأجابني عثمان ذو النورين

لغز في عثمان:

يا أيها العارف في فنّه
ما قولكم في أحرف خمسة
ومدّعي الفهم وعلم البيان
إذا مضى حرف تبقى ثمان

وفي علي:

قال العذول مذ رأى
بمن فتنت في الورى؟
قلبي به في شغل
فقلت دعني بعلي

وله عفا الله عنه:

بعلي قد همت ما بين الورى
وإذا ما غاب عني شخصه
وبه قلبي المعنى قد بلي
صاح قلبي وحشة يا لعلي

ولابن حجر الحافظ رحمه الله:

قلت: هل لي من دوا
قالوا سلوى كل حبّ
قد غدا قلبي عليلا
قلت إلا عن علي لا

وللحجازي في عبد العزيز:

إن عبد العزيز قد جاء نحوي
في هواه حقاً لقد طاب ذلي
شرح حالي أغنى عن التمييز
حيث أصبحت عبد عبد العزيز

وللأزهري في عبد القادر:

حبي عبد القادر الذي له
وكيف لا أريده بين الوري
بهجة حسن والورى عبيده
والله يدرى أنني أريده

لغز في عبد الله:

اسم من أهواه يا سيدي
وأخو الورد تمام اسمه
فيه من العنبر حرفان
وواحد ليس له ثان

وفي عبد القوي:

عبد القويّ سباني
وصرت عبداً ضعيفاً
بقده السمهرى
في حب عبد القوي

وفي عبد اللطيف:

فتنت بعبد اللطيف الذي
ولا عجب إن بدا لطفه
فطائته أسكنته الفؤاد
فعبد اللطيف لطيف العباد

وفي عبد الحفيظ:

عبد الحفيظ الندي
لا تختشي من ضياع
قد أنجح الله قصده
فاله يحفظ عبده

تعدد الزوجات والأزواج

وفي محمود:

يقول لي منكر حالي به
من لك في ذا الحي مقصود
فقلت لا تسل بحق الهوى
عنه فقصدي فيه محمود

وفيه يهجو:

ما كنت أحسب أنني أجي إلى زمن
يسبني فيه كلب وهو محمود

وفي إبراهيم:

عجت لنار قلبي كيف تبقى
حرارتها وحبك تحتويه
فيا نيرانه كوني سلامًا
وبردًا إن إبراهيم فيه

وفيه أيضًا:

لا زال بابك بالمكارم كعبة
حتى يقول القاصدون بأمرهم
فترى بها للواردين رسوم
هذا المقام وأنت إبراهيم

ولابن نباتة في خليل:

يغيب خليل الحسن عني ليلة
وكيف يطيب العيش عندي والكرى
فأسأم من ليل طويل أراقبه
وليس إلى جنبي خليلًا لأعبه

ولعز الدين الموصلي:

قال جبي خليل غيرت ودّي
بعد عشق الملاح صرت تقياً
وتركت الفؤاد مني عليلاً
ما تراعي من الأنام خليلاً

وقال في يعقوب:

يعقوب إنني يوسف قد تركتني
وأصبحت مخذولاً وقد كنت ناصرًا
من الحزن يعقوبًا وأصبحت يوسفًا
وكنت مليكًا صرت عبدًا مكلفًا

ولابن الخياط فيه أيضًا:

رأيت أني في الكرى لاثمًا
يوسف أنبيننا بتأويله
مبسمك الشافي آلامي
فقال هي أضغاث أحلامي

لغز فيه ... وأجاد:

يا سائلي عن اسم من أحببته
فإذا أردت بيانه فاعمد إلى
إني بمن أهواه غير مصرح
معكوس سابع كلمة في «سبَّحُ»

وفي موسى:

رأيت في حلق غزالًا
فقلت ما الاسم قال موسى
تحير في وصفه العيون
فقلت هنا تحلق الذقون

وفي عيسى:

ناديت يا عيسى ترفق بامرئ
عيسى بن مريم كان يحيي من يرى
أحشاؤه قد أحرقت نهاكا
وتميت أنت الحي حين يراكا

في داود:

وثقت بأن قلبي من حديد
فلان على هواك ولا عجيب
وفيه على الهوى بأس شديد
إذا داود لان له الحديد

تعدد الزوجات والأزواج

وفيه أيضًا:

أمسى يقرّ بحسنه بدر الدجى وغدًا يذوب بحسنه الجلمود
فإذا بدا فكأنما هو يوسف وإذا شدا فكأنه داوود

في سليمان:

له وجنة تدمى من اللحظ رقة يكاد بها ماء الشبيبة ينهل
فهذا سليمان لرقة خده إذا دبّ فيه النمل كلمه النمل

في خضر:

مهفهف طلعتة ليس بها مناظره وقدّه غصن نضر
يجري لنا ماء الحياة وثغره لا تعجبوا ماء الحياة فهو خضر

في رجب:

دموعي ربيع والرقاد محرّم على جفن عيني مذ هجرت بلا سبب
وفي القلب من شعبان نيران نصفه فجد لي بما أرجو من الوصل يا رجب

في شعبان:

شعبان قد أمسى يهز معاطفًا أبدت حلاوة خصره مع ردفه
لا غرو إن لاحت عليه طلاوة شعبان كل حلاوة في نصفه

علي بن سودون في بركات:

رشاً يصيد الأسد في اللفتات قد صاد كل فتى وكل فتاة
الوجه منه مبارك فإذا بدا لا تياسن يا قلب من بركات

ابن القيسراني في منصور:

يا قمر الوصل في جنة
كم حاربتك الشمس في حسنها
ما سكنت ولدانها الحور
وأنت يا منصور منصور

النواجي في نجم:

قد كنت أحسب نجم الدين يمنحني
حتى رمانى في نيران مهجته
من وصله كل ما أهوى وأختار
فصحّ عندي أن النجم غرار

وله في سعد:

أنا قد همت بسعد
فأطرح نصحي ودعني
وتفانيت بوجوده
إنما المرء بسعده

وله في سعيد:

سموا منى مهجتي سعيداً
إذا اجتمعنا يقول صدري
ولي شقاء به يزيد
هذا شقيٌّ وذا سعيد

وله في قاسم:

شكوت له حالي وفرط صبابتي
وقال استعر صبري وكن متأسياً
فتاه دلالاً وانثنى وهو باسم
فنحن قسماً وارض بالحب قاسم

ابن العطار في يحيى:

أيمكن سلوتي يحيى؟ وروحي
وقلبي يشتهي فيه اكتئابى
تكابد في هواه عليه أشياء
ويرضى أن أموت بحب يحيى

تعدد الزوجات والأزواج

وله في هاشم:

في هاشم قلبي بدا دايبا من لحظه الفاتك بالعالم
وكسر قلبي صحَّ في عشقه لقلّة الإنصاف في هاشم

وله في عامر:

حبيبي يدعى في الأنام بعامر وأول عشقي ليس لي فيه آخر
يهدّد قلبي بالصدود وبالجمفا على أنّ فيه منزل الشوق عامر

وله في فرج:

وليس لي مخلص أرجو النجاة به من الغامر فقد ضاقت بي الحجج
لكن أضمنّ بيت القائل بن رجا كل الأمور وإن ضاقت لها فرج

آخر:

يا لائمي في رشيق القد معتدل انظر فإن غرامي غير ذي عوج
أشكو الشدائد من وجد أكابده ولست أياس في شكواي من فرج

للحجاج في أمير حاج:

مننت بزورة للعيد يومًا لك الرحمن بالحسنى يجازي
وأما إن دعيت أمير حاج فلا بدع بحبّك للحجّازي

ولابن نباتة في عماد:

قالوا العماد مليح أسبى جميع العباد
بحسنه قلت قصدي أنظر لذات العماد

لعز الدين الموصلّي في جرادة:

لَقْبُوهُ جَرَادَةٌ وَهُوَ ظَبْيِي
صَدْتَهُ فَامْتَلَأَ فَوَادِي شَحْمًا
فَاقَ حَسَنًا وَلَمْ أَعْرِهْ شَهَادَهُ
لَا تَقُولُوا بِأَنَّ صَيْدِي جَرَادَهُ

لابن نباتة في إلياس:

أَفْدِي مَلِيحًا فِي الْبَرَايَا لَمْ أَزَلْ
قَالُوا أَنْقَطَعَهُ كَبِيرًا قَلْتُ مِنْ
طُولِ الزَّمَانِ عَلَيْهِ فِي وَسْوَاسِ
رَاحَاتِ قَلْبِ الْمَرْءِ قَطْعَ الْيَاسِ

لغز في إسماعيل:

اسْمٌ مِنْ قَدْ هَوَيْتَ سَتَّ حُرُوفِ
عَيْلٍ صَبْرِي تَمَامِ اسْمِ حَبِيبِي
نَصَفَهَا مَا تَبَدَّيْتُ فَاسْتَفْهَمُوهَا
مَا عَلَى الْعَالَمِينَ لَوْ فَهَمُوهَا

لابن الصايغ في حسن:

إِنَّ الْحَسُودَ عِنْدَمَا
وَقَالَ لَا بَدَعَ إِذَا
عَايَنَ ذَا الْحَسَنِ افْتَنَّ
أَتَى عَلِيًّا بِالْحَسَنِ

وفي حسين:

حُسَيْنٌ سَبَاتِي حَسَنُهُ وَلِحَاظُهُ
رَمَانِي بِسَهْمِ اللَّحْظِ قَلْتُ لَهُ: اتُّدَّ
وَقَامَتُهُ كَالْخَيْزِرَانَةِ تَنْثَنِي
سَمِيكَ مَقْتُولٍ وَأَنْتِ قَتَلْتَنِي

وفي بدر:

سَمُوهُ بَدْرًا وَذَاكَ لِمَا
وَأَجْمَعَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْهُ
أَنَّ فَاقَ فِي حَسَنِهِ وَعَمَا
بِأَنَّهُ اسْمٌ عَلَى مَسْمَى

وفي كمال الدين:

ديني تكمل مذ جعلتم قبلتي
وغدوت أنشد في البرية كلها
وسجدت في أعقابكم بجبيني
ما الفخر إلا في كمال الدين

في عز الدين:

مولاي عز الدين يا من غدا
بكم حقيقاً حسنت حالتي
مادحه ما زال في عز
والذل قد بدل بالعزّ

في تاج الدين:

ببابك تاج الدين قد جئت مهدياً
فزادت بهاء من عطائك سيدي
جواهر لفظ لم ينلني تاجر
وفي التاج أبهى ما يكون الجواهر

الشهاب الصائم في محب الدين:

في ملاح لك شتى
كم ليالٍ مع غزال
ضعف القلب وشتاً
يا محب الدين بتاً

في شرف الدين يهجو، وأجاد:

لقبوه شرف الدين
كيف يرجى منه خير
يرجّون السيادة
وهو شرٌّ وزيادة

وفي زيتون يهجو فيه:

سموك زيتوناً فما أنصفوا
لأن للزيتون زيتا يضي
لو أنصفوا سموك زعرورا
وأنت لا زيت ولا نورا

في يونس:

وقالوا حبيب القلب بدر وقدّه
فلو لم يكن غصناً لما كان مائلاً
حكى البدر وجهًا قلت: بل هو أملس
ولو لم يكن بدرًا لما كان يونس

آخر، وأجاد:

شغفت بفتان اللواظ أهيف
فإن غاب عني تصورت شخصه
له مقلّة سوداء والخذ أطلس
فيوحشني والحب في القلب يونس

في مقبل:

يا من تحجب عن محب صادق
من لي بيوم فيه يسمح باللقا
ما زال عنه كل يوم يسأل
ويقال لي هذا حبيبك مقبل

في شاهين:

يا من تسمى بشاهين وسميته
قد اشتهيناك بالشاهين لا نفساً
خطف القلوب وبالألحاظ شاهينا
فهل ترى أنت يا شاهين شاهينا

في عنبر:

مذ رأني عنبر حبيبي
أرشفني من لماه خمراً
وعرف رياه قد تعطر
وشاقتني من شذاه عنبر

في بشير:

بشير سبا مهجتي
وقد جاد لي بالرضا
وجا كبدر منير
وللواصل وافي بشير

تعدد الزوجات والأزواج

في سنبل:

يقولون لي إذ زار في الحب سنبل
أهذا شذا مسك تضيع نشره
وقد فاق ريباً نشره كل مندل
فقلت له هذا شذا عرف سنبل

في كافور:

مذ زار كافورنا البديع سنا
شاهدت من خاله بوجنته
ووجهه حفّ من سنا النور
نقطة مسك تبدو بكافور

في مسرور:

يقولون لي مسرور وافاك زائراً
فقلت لهم قد زال همي بوصله
وقد بت بالصبا ماسورا
وقلبي به في الحب أصبح مسرورا

في ريحان، والله درّه:

فديت ريحان صبا بالجوى
لما رنا بلحاظه من نرجس
وبعاد قلبي شفه الأشجان
وبدا يعارض خدّه ريحان

في صبيح، وأجاد:

أرى صبيح مهجتي قد سبى
فكيف لي بالصبر عن حبه
وصير الدمع بخدّ يسبيح
وقد سبى قلبي بوجه صبيح

في مبارك:

مبارك يا عدولي
لو زارني كنت أحظى
أطلت فيه مقالك
منه بكعب مبارك

في فرج:

يا قلب إذ أتاني فرج
وربما تبلغ المراد وكم
عسك بالوصل منه تبتهج
قد جاء عند الضيق الفرغ

ما قيل في المهن والحرف

في إسكاف:

رب إسكاف مليح حسنه
كلما أشكو إليه سقمي
ذاب قلبي منه صدًا وجفا
قال ما عندي سوى هذا الشفا

في بخانقي:

تسلطن في الملاح بخانقي
وصفّ له من الأتراك جنّدًا
ولم يرض ببدر التم نايب
وأصبح موكبًا تحت العصايب

في حباك:

يا مليحًا مهذب مقلته
مذ رأيت الحبك صنعته
صاد قلبي منه بالشرك
قلت هذا البدر في الحبك

عز الدين الموصللي، في حجام:

وحاجم في الكاس أجرى دمًا
لكنه خالف في شرطه
من ساق ساقينا بإشفاق
فحكّم الكاس على الساق

في حريري:

حريري يبيع الحسن لكن شبيه الغصن والبدر المنير
كسى جسمي السقام ولا عجيب لثوب السقم من هذا الحريري

وما أحسن من قال ما ينسج على تكة ... وأجاد:

أنا قفل من حريري ... فوق خصر مستدير
أنا لا أفتح إلا ... عند أوقات السرور

وقال في حداد، وأجاد:

تعشقت حدادًا بديع ملاحه له طلعة في الحسن تعلق وتشمخ
إذا رمت بالتطريق وصلًا بقربه أراه ستر الغيظ ثم ينفخ

في حلوي:

ريق الحلوي أحلى من حلوته في خصره دنف والردف منقوش
والدمع سكب وأحشائي تقوضه والخد مني بماء الدمع مرشوش

لابن الوردي فيه أيضًا:

الحلوي قال لي أنا للحسن معدن
سهم عيني مسبر وعدوي مكفن

وللصفدي فيه أيضًا:

إن هذا الصبي الحلوي أضحى يتجنى على الكثيب ويحقد
لا تعارضه في هواه بشكوى دعه في دسه يحل ويعقد

في حوايجي:

حوايجي أتيت أسأله قلت له يا أخا الرضا صف لي
في عنقي دمّل به ورم قال يداوى بمرهم النخل

لابن الوردى في خياط:

لما أتى والمقص في يده ... وفصل العاتقين والبدنا
فقال وصلًا يعوز قلت له العايز الوصل يا مليح أنا

وأيضًا فيه:

مررت بخياط حكى البدر طلعة وشاكل غصن البان لما انتنى قدًا
يقد ويفري الثوب ثم يخيطه فلم ثوب قلبي لا يخاط وقد قدًا

وللازميري فيه أيضًا:

لله خياط إذا سألته وصلًا أراه جا بالمطلوب
وإن شكوت غمّتي لردفه فرجها بالوصل والركوب

في ذهبي:

عشقتة ذهبيّ اللون طلعتة أبهى من البدر بل أبهى من الشهب
إن ملت طبعًا إليه ليس ذا عجب فالناس بالطبع قد مالوا إلى الذهب

وفيه أيضًا:

إلى الذهبي صبا قلبي وكم يدعوه للعطب
ألم ترني على شغفي أحب الرضع في الذهب

تعدد الزوجات والأزواج

وفي راشد:

أقول لراشدي لما تبدى بحسن جمالك الحسن المفدى
عساه يكون لي بالوصل ناجد إلى العشاق قد وافاك راشد

وفي رسام:

هويت رساماً كبدر الدجى قلت له صلني ولو ساعة
وثغره كالدر إذا تبسم قال: بكم؟ قلت: بما ترسم

وفي رفا:

يا رافياً قطع كل ثوب عسى بخيط الوصال ترفي
يا بغية النفس يا مرادي ما فرق الهجر من فؤادي

وللصفدي فيه أيضاً:

ورفاء له وجه مليح شغلت به الفؤاد ولا زماناً
محاسنه البديعة ليس تخفي أرى ثوب الفؤاد يعد زرفا

في بياع ريحان:

يا صاح ريحاننا قد زارني لما نظرت إلى شقايق خده
وبكاس فيه لما سقاني سلب الفؤاد عذاره الريحان

وللصفدي في سكرى:

سبتني صفات السكرى الذي له مكرر لفظ في سنينات مبسم
بضاعته حتى عدت قراري وأحمر خدً في نبات عذار

ولابن العربي ... في مליح يسبي الفؤاد:

وظببي يطرق بمرآته فيسبي فؤادي من لطفه
وهيهات أن أرتجي من هواه خلاصًا ودفني في كفه

ولبدر الدماميني في سبّاك:

سبّاك تبر وفضة صنّعه نواه قلبي فسره إذ ذاك
قلت له سبني أنا وأخي قال نعم مذ عشقت سبّاك

وقال آخر، وأجاد في سروجي:

فتنت به سروجيًا بديعًا به قد ذبت وجدًا من ضجيج
إذا جذب الغرام له عناني يلذّ لي الركوب على السروج

في سقّا:

لله سقّا له طلعة لكل حين قد غدا راويه
أروم أن يسكب لي قربة وعبرتي من صبوتي راويه

وللأزميري فيه أيضًا:

عشقت سقا كالزلال رضابه فكأنه من خمر فيه قد انتشا
يروى المبرد عن لماه كاملاً وإليه قلبي لم يزل متعطشا

ولشيخ الشيوخ بحماسة في شرابي:

سألته من ريقه شربة أظفي بها من كبدي جمره
فقال أخشى يا شديد الظما أن تتبع الشربة بالحسره

تعدد الزوجات والأزواج

ولابن الصايغ في شماع:

نظرت إليه شماعاً مليحاً
له خدّ جمر لا لهيب
جميع الحسن منسوب إليه
يذوب الشمع من أسف عليه

مواليا في صابوني:

حببت أهيف رقيق الخصر صابوني
والله لو فتشوا قلبي لصابوني
لما هجر قلت عين الناس صابوني
ما خلت عنه ولو بالنبل صابوني

ولبدر الدين الدماميني في صايغ:

وصايغ شادن هام الفؤاد به
يا ليتني كنت منفاخاً على فمه
وحبه في صميم القلب قد رسخا
حتى أقبل فاه كلما نفخا

وله أيضاً في طبيب:

طبيب يحاكي الغصن في حركاته
عجباً له يبيري السقام بلطفه
أصيرّ روعي في هواه سبيلا
وبطرفه يدعى السقام عليلا

وله في طحان:

لله طحان تبدى وجهه
وجناته ماء ولكن قلبه
قمرًا له قمر السماء رقيق
حجر وأما خصره فدقيق

وله أيضاً في عطار:

قلت لعطار به صبوتي
أسقيني كأس غرامي به
محمودة والصبر لا يستطاب
ذبت ومن فيك براني الشراب

وفي مليح جالس عند عطار:

وعطار مررت عليه يوماً
فقلت له أعندك ماء ورد؟
وجدت بجنبه ظبيًا رمانى
فقال: نعم، وعندي ما لسانى

ولابن الفرس، وأجاد في عوام:

يا حسن عوام كغصن النقا
ويقنع العشاق منه بأن
يبخل بالوصل لمن هاما
يريهم الأرداف إن عاما

وقال آخره، وأجاد في فاخران:

سباني فاخران بديع حسن
فهمت من الغرام له بحب
رمى في القلب بالبحران جمره
وقصدي منه أن أحظى بجره

وفي قباني:

أشرت إلى الحبيب وقد تبدى
فدل بحسنه تيهًا ونادى
بقبان ودمع العين سايل
إشارات المحب لها دلايل

وللسيد محمد رضوان الرعاد في قصاص:

أشكو إلى الله قصاصًا يجرّعني
إن تحسن القص يمناه فمقلته
بالصد والهجر أنواعًا من القصص
أيضًا تقص علينا أحسن القصص

في بايع الكتان:

ربح محب لم يزل قلبه
من بايع الكتان من ربط
من طلب التسريح من حبه
سرّحه لكن على المشط

تعدد الزوجات والأزواج

ولابن الوردی فی کفتی:

لی کفتی ضبانی حسنه
مذ تبدی فی حدید فحکی
لا أرى من محبة لي مخرجا
قمرًا طرز بالبدر الدجی

ولابن العفیف فی کوانی:

اسم حبیبی وما یعانی
قالوا علی فقلت قدر
قد أظهرها لوعتی ولبی
قالوا کوانی فقلت قلبی

وقال آخر فی ملیح مکحول:

یا أیها الرشأ المکحول ناظره
إن انغماسک فی التیار حقق أن
بالسحر حسبک قد أحرقت أحشائی
الشمس تغرب فی عین من الماء

ولابن الوردی فی مزین:

بأبی شادن تملک روجی
مسک الکلبتین قلت عجیب
بجبین وتحتہ مقلتان
من غزال بکفه کلبتان

ولأبی الفضل بن أبی الوفا فی مجبر:

أحببت من بین الأنام مجبرا
نادیتہ قلبی کسیر بالجوی
حسن الشمائل شبه ظبی أحوری
فاسمح وکن بالوصل منک مجبری

ولابن الوردی فی مهمیزی:

صاح هذا المهمیزی عارضه
وجاد بالوصل لی یومًا رفست علی
بالحسن أصبح أرقم وتطریزی
أكباد من لام فیہ بالمهمیزی

ولآخر لبايح الفخار:

بايح الفخار بدر
ما الذي تبغيه منّي
قال للعاشق جهره
قال قصدي ألف جرّه

وفي ملالي:

ملالي العراق نوى حجازاً
إذا سألوا وداعاً لم يجيبهم
به العشاق وجدّاً قد أمالا
بلا إيه ولا نعم ولا لا

وقال ابن عربي في ناتف:

وقالوا دع المحبوب واهجره دائماً
أينتف من أجلي ويتعب نفسه
ألم تره بعد الملاحه ينتف
وأهجره تالله ما أنت منصف

ولابن الوردي في نطاع:

هويت نطاعاً إذا جيته
أروم أن أحظى بوصلٍ وقد
بادرني باللحظ والصفح
قابلني بالسيف والنطع

وللسراج الوراق في وراق:

يا حسن وراق أي خده
تميس في الدكان أعطافه
قد راق في التقبيل عندي ورق
ما أحسن الأغصان بين الوراق

وقال ابن حبيب فيه أيضاً:

فتنت بحسن وراق نفور
صقيل الوجه كم ذرح لديه
بقلب الصب نار البحر أصلا
ويغضب إن طلبنا منه وصلا

تعدد الزوجات والأزواج

وللسيد محمد رضوان الرعاد في وقاد:

أحببت وقادا كبدر طالع أنزلته برضى الغرام فؤادي
وأنا الشهاب فلا تعاند عاذل إن ملت نحو الكوكب الوقاد

وللصفدي في قطان:

قطاننا مهفهف تعتله أردافه
ناديت من وجدي به يا ليتني ندافه

وله في بيع مرسين:

يا صاع مرسينا لو زارني يوماً لكان بوصله يشفيني
لما نظرت إلى رياض خدوده سلب الفؤاد عذاره المرسيني

وله في بيع نرجس:

بالروح أفدي فوجيا خدّه ورد وآس عذاره كالسندس
لما دنا ونظرت روض جماله نزهت طرفي في عيون النرجس

وله في بيع بنفسج:

سبا بنفسجنا بحسنه قلبي الشجي
لما بدا في خده عذاره البنفسجي

وله في بيع تفاح:

لله من بيع تفاح إذا غلبني بحسن جبينه الوضاح
لما نظرت لحسن نرجس كفه هام الفؤاد بخده التفاح

وله في بيع سفرجل:

لله من سفرجلي شاقني بغنج طرف بابليّ أكحل
حيا بكاس الراس مع القرنفل ما أحسن الراح مع السفرجل

وله في بيع الورد:

لله وردٌ نبا البديع سنا وما جرى في الثغر من شهد
لما تأملت روض وجنته تيم قلبي بخده الورد

هوامش

- (١) الأغاني ج ٨.
- (٢) في كتاب علم الدين ج ١ لصاحبه علي مبارك باشا.
- (٣) سبحة المرجان ص ٢٥٧ أشعار.
- (٤) التبريزي على الحماسة ج ١.
- (٥) في الروض الأنف.
- (٦) في «الكامل» لابن الأثير.
- (٧) في بدائع الفوائد.
- (٨) في خزانة الأدب للبغدادي.
- (٩) تكن رأسها: أي تخفيها كما هو مشهور عن النعامه غالبًا.
- (١٠) روضة الأعيان للتراجم ص ٤٣٨.
- (١١) المنتخبات الشعرية رقم ٦٤٨ شعر تيمور مخطوط ص ٨٧.
- (١٢) الجزء رقم ٦٤٨ شعر تيمور مخطوط ص ٩٨.
- (١٣) الجزء مجموع في الشعر مخطوط رقم ٦٤٨ شعر تيمور ص ١١١.

عداوة النساء

طاعتن تردى العقلاء، وتذل الأعزاء

ذم بعض الحكماء من القدماء جماعة النساء، فقال: هن نار توهج، وسلّم إلى كل بلاء، وهن مثل شجرة الدفلي، لها رونق وبها ثمر، إذا أكله البعير آذاه، وقد يودي به.

ومن أمثالهم: طاعة النساء تردى العقلاء، وتذل الأعزاء ...

ونظر بعض الصالحين إلى امرأة تتزين وتتعطر، فلما فرغت من زينتها ظهرت محاسنها، وزاد جمالها، فقال لمن حوله: إنما المرأة مثل النار إذا زيد في حطبها تأججت، واشتد حرّها، وضاعت للناس، فهي حسنة المنظر، تحرق من دنا منها.

وقال بعض الحكماء: الكيس من لم تضطره النساء. وقال أيضاً: من كانت لذته في النساء وقع في أعظم البلاء.

وقال: من أراد أن يعيش عيشة رغد، ويحيا حياة بلا نكد، فلا يشغل فكره بشهوة النساء، ولا يومي إليهن بطرفه ولا بيده.

وقال حكيم: كل أسير يفتك إلا أسير النساء فإنه غير مفكوك، وكل مالك يملك إلا مالك النساء فإنه مملوك، وما استرعين شيئاً قط إلا وضاع، ولا استؤمن على سرٍّ إلا ذاع، ولا أطقن شراً فقصرن عنه، ولا حوين خيراً فأبقيين منه، فقليل له: كيف تدمهن، ولولاهن لم تكن أنت ولا أمثالك من الحكماء!؟

فقال: مثل المرأة مثل النخلة الكثيرة السلاء، لا يلامسها جسد إلا اشتكى، وحملها مع ذلك الرطب الطيب الجني. والسلاء: جمع سلاة وهي شوك النخل.

وروى فيهن: أنهن محملات الآصار، ومكلفات الأوزار، وأكثر أهل النار، ولا يصبر عليهن إلا الأخيار، وأنهن يسرعن اللعن، ويكثرن الطعن. وفي الحديث: أنهن يكفرن

العشير، وينكرون الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأيت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط!

وقال لقمان: استعذ بالله من شرار النساء، وكن من خيارهن على حذر.

وقيل لبقرات: أي السباع أحسن صورة؟ فقال: النساء.

ورأى امرأة ذهبت إحدى عينيها، فقال: قد ذهب نصف الشر.

ورأى البحر قد حمل امرأة، فقال: شر يجني شرّاً. ورأى رأس امرأة على شجرة

فقال: ليت كل الشجر يثمر مثل هذا الثمر.

ونظرت عجوز من الفلاسفة إلى رجل يريد أن يعرس، وقد زين داره وزوقها، وكتب

على الباب: «لا يدخل علي من هذا الباب شيء من الشر».

فأجبت له: «فامراتك من أين تدخل؟».

وتكلم نسوة عند عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فقال لهن: اسكتن، فإنما أنتن

لعب، إذا فرغ لكن، لعب بكن.

وقيل: إن الإسكندر خرج إليه في بعض حروبه نساء يحاربنه، فقال لأصحابه: كفوا

عنهن، فإن ذلك جيش إن غلبناه لم يكن لنا بذلك ذكر ولا فخر، وإن غلبنا فهي الفضيحة

الباقى مع الدهر.

ورأيت في بعض الكتب أن بعض النسوة لا يسكن مع الرجال، وأن أزواجهن يسكن

ناحية منهن، فمتى احتاج الرجل إلى امرأته أتاها ففضى مدة عندها وانصرف، فإذا ولدت

ولداً ربته حتى يكبر وأرسلته إلى أبيه، وإن كانت جارية طمست ثديها الأيمن حتى يبيس

لثلاً يمنعها الطعن بالرمح، وتركت الآخر الأيسر لترضع به ولدها، ومع هذا فلا تؤمن

صحبتهن، ولكن لا بد من الأدب في ذلك.

قال عمر (رضي الله عنه): عودوا نساءكم — لا، فإن — نعم — تجريهن على

الألسنة. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «شاووهن وخالفوهن»

وقال علي (رضي الله عنه) لابنه محمد بن الحنفية: إياك يا بني ومشاورة النساء،

فإن رأيهن إلى الأفن، وعزمهن إلى الواهن، واكفف عليهن من أنصارهن بحبك إياهن،

وإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل، ولا تطل الجلوس معهن فيهلكنك وتملهن، واستبق

من نفسك بقية.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «كمل من الرجال كثير، ولم تكمل من النساء إلا

امرأتان: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران».

وخطب النبي عليه صلوات الله وسلامه نسوة فقال لهن: «إنكن إذا جعتن دقعتن، وإذا شبعتن أشرتن». وفي بعض الروايات ورد بدلاً من لفظ (أشرتن: حجلتن). ومعنى (دقعتن: خضعتن ولصقتن بالدقعاء، وهي غبرة التراب، ويقال: فقر مدقع، أي ملصق بالدقعاء. وقالوا: رماه الله بالدوقعة، وهي الفقر والذل، وجوع ديقوع: أي شديد.

وقال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام في النساء: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء». وفي الشهاب: النساء حبائل الشيطان. وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء. وقال وهو ابن أربع وثمانين سنة، وقد ذهب بصره: ما شيء أخوف عندي من النساء. وقال بعضهم في هذا المعنى:

تلك التي أوردته لُجة النكد
في أن يكابد همّ الأهل والولد
كل بشهوته، فليعط، أو ... يَعيد
فظل من بلد يسري إلى بلد
من ها هنا لهنّا، أو من يدٍ ليد
وما يجمعه من جيد وردي
فعل امرئٍ ليس في الأخرى بمُعْتَقِدٍ
تلك النهاويش بعد الأين والجهد
في كسب أخرى كذا، دأباً بلا أمد
إذ ليس في فعله هذا بمقتصد
بالمكر والغش، ثم الغل والحسد
أهلاً بهن، ولا قرّبن من خلد
يصرعن من كان ذا أيد وذا جلد
وأعقبت حسرات آخر الأمد
بهمّ عيشته لو كان ذا رشد
حتى هوى مُكرهاً في هوة الأسد

أضر شيء على الإنسان شهوته
إن الفضول لعمر الله أدخله
يحتاج داراً وأهل الدار يطلبه
فاضطره الحال أن يسعى ليرضيهم
كأنه حجر يرمي به نزق
ما همه الدهر إلا ما يؤلفه
وما يبالي حراماً منه ذاك أتى
حتى إذا اجتمعت تلك المكاسب من
أمسى يفرقها فيهم ونيّته
وربما أسخط المسكين خالقه
الفرض ضيعه، والدين أتلفه
وكل ذلك من أجل النساء، فلا
يسلبن لبّ ذوي العقل الرصين، كما
يا رب شهوة وقت أورثت عُصصاً
قد كان في شغل عنهن قاطبة
لكنه عميت عن ذاك مقلته

ومن شعر أبي العمران الميرتلي رحمه الله:

وقالوا: تزوج فنعم الفتاة
ولو أستطيع لطلقت نفسي
أشقى بها دون ما ضرة
وما تقنع العرس مني بشيء
فنفسي أولى بنفسي، ودع
عرضنا عليك تنل خيرها
فكيف أضيف لها غيرها
وأمن من ضرة ضيرها
سوى أن تصيرني غيرها
سواها تسرّ وتصلّ سَيْرها

بنات الأربعين من الرزايا

أنشدني أبو عبد الله اليزيدي، قال: أنشدني عمي لمحمد بن عبد الله بن طاهر:

مطيات السرور بنات عشر
فإن جاوزتهن فسر قليلاً
مقاساة النساء مع الليالي
إلى عشرين، ثم قف المطايا
بنات الأربعين من الرزايا
إذا أولدتهن من البلايا

طرائف عن الحب

حيلة عاشق

كان لأبي العتاهية الشاعر العباسي نوادر لطيفه مع «عُتْبة» جارية المهدي، تدل على كمال ظرفه؛ ومن ذلك ما ذكره الخطيب في «تاريخ بغداد» قال: إن أبا العتاهية لما ألح في أمر «عتبة» لأول دخوله بغداد، ولم ينل منها شيئاً، وجدها يوماً قد جلست في أصحاب الجوهر، فمضى فلبس ثياب راهب، ودفع ثيابه إلى إنسان كان معه، وسأل عن رجل كبير في السوق، فدل على شيخ صائغ، فجاء إليه فقال: إني قد رغبت في الإسلام على يدي هذه المرأة ... يعني «عُتْبة».

فقام الشيخ الصائغ وجمع جماعة من أهل السوق، وجاء إلى «عتبة» فقال لها: إن الله قد ساق إليك أجراً، هذا هو راهب قد رغبت في الإسلام على يديك. فقالت: هاتوه. فدنا أبو العتاهية منها — وهو في زي الراهب — فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ثم قطع الزنار، ومال على يدها فقبلها.

فلما فعل ذلك، رفعت البرنس عن وجهه، فعرفته وقالت: نحوه، لعنه الله! فقالوا لها: لا تلغنيه فقد أسلم. فقالت: إنما فعلت ذلك لقدره. فعرضوا عليه كسوة، فقال: ليس لي حاجة إلى هذه، وإنما أردت أن أشرف بولائها، فالحمد لله الذي من علي بحضوركم. وجلس أبو العتاهية، فجعلوا يعلمونه (الحمد) وصلى معهم العصر، وهو في ذلك ينظر إليها، لا تقدر له على حيلة!

وحدّث المبرد: أن «ريطة» بنت أبي العباس السفاح، وجهت إلى عبد الله بن مالك الخزاعي في شراء رقيق للعتق، وأمرت جارتها (عُتْبة) — وكانت لها ثم صحبت «الخيزران» بعدها — أن تحضر ذلك. فإنها لجالسة إذ جاء «أبو العتاهية» في زي

متنسك فقال لها: جعلني الله فداك، شيخ ضعيف لا يقوى على الخدمة، فإن رأيت — أعزك الله — شرائي وعتقي، فعلت مأجورة، فأقبلت على عبد الله فقالت: إني لأرى هيئة جميلة، وضعفًا ظاهرًا، ولسانًا فصيحًا، ورجلاً بليغًا، فاشتره وأعتقه. فقال: نعم أفعل، ثم قال لها أبو العتاهية: أتأذنين لي — أصلحك الله — في تقبيل يدك؟ فأذنت له، فقبل يدها وانصرف؛ فضحك عبد الله بن مالك وقال لها: أتدرين من هذا؟ فقالت: لا. قال: هذا أبو العتاهية، وإنما احتال عليك حتى قبّل يدك!

بين الحب والمال

وكان أبو العتاهية قد قصد بغداد من الكوفة، مع زميلين له، ليستفيد بشعره عند أمرائها، ولم يكن لهم في بغداد من يقصدونه، فنزلوا غرفة بالقرب من الجسر، وكانوا يبكرون فيجلسون بالمسجد الذي بباب الجسر في كل غداة، فمرت بهم يومًا امرأة راكبة، معها خدم سودان، فقالوا: من هذه؟ قالوا: خالصة. فقال أحدهم: قد عشقت خالصة. وعمل فيها شعرًا أعانوه عليه.

ثم مرت بهم أخرى، راكبة أيضًا، ومعها خدم بيضان. فقالوا: من هذه؟ قالوا: هذه (عتبة)، فقال أبو العتاهية: قد عشقت عتبة، وعمل فيها شعرًا.

ولم يزلوا كذلك، حتى شاع الشعر المصنوع إلى الجاريتين، وتحدث الناس بعشق أبي العتاهية وزميله لهما، فقال صاحبا الجاريتين: نمتحن العاشقين بمال على أن يدعا التعرض للجاريتين، فإن قبلا المال كانا مستأكلين، وإن لم يقبلاه كانا عاشقين.

فلما كان الغد، مرت (عتبة) فعرض لها صاحبها، فقال له الخدم: اتبعنا، فتبعهم، فمضت به إلى منزل خليط لها يزار، فلما جلست دعت به، فقالت له: يا هذا، إنك شاب، وأرى لك أدبًا، وأنا حرمة خليفة، وقد تأنيتك، فإن أنت كففت وإلا أنهيت ذلك إلى أمير المؤمنين، ثم لم آمن عليك.

فقال لها أبو العتاهية: فافعلي، بأبي أنت وأمي، فإنك إن سفكت دمي أرحتني، فأسألك بالله إلا فعلت ذلك إذا لم يكن لي فيك نصيب!

فقالت له: أبق على نفسك، وخذ هذه الخمس مئة دينار، واخرج عن هذا البلد، فلما سمع ذكر المال ولى هاربًا، فقالت: ردوه، وألحت عليه فيها. فقال لها: جعلت فداك، ما أصنع بعرض زائل من الدنيا وأنا لا أراك؟ ... والله إنك لتبطين يومًا واحدًا عن الركوب، فتضيق عليّ الدنيا بما رحبت، فزادت له في الدنانير، وما زالت تلح عليه فلا يزداد إلا رفضًا.

قليل منك يكفيني

ومن أطف ما قاله أبو العتاهية في (عتبة) قوله:

بالله يا حلوة العينين زوريني
قبل الممات، وإلا ... فاستزيريني!
هذان أمران، فاختاري أحبهما
إليك، أو ... لا. فداعي الموت يدعوني
إن شئت موتًا، فأنت الدهر مالكة
روحي، وإن شئت أن أحياء، فأحييني
يا (عتب) ما أنت إلا بدعة خلقت
من غير طين، وخلق الناس من طين
إنني لأعجب من حب يقربني
مما يباعدني عنه، ويقصيني
لو كان ينصفني مما كلفت به
إذن ... رضيت، وكان النصف يرضيني
يا أهل ودِّي ... إنني قد لطفت بكم
في الحب - جهدي - ولكن ... لا تبالوني
الحمد لله، قد كنا نظنكمو
من أرحم الناس - طرًّا - بالمساكين
أما الكثير، فلا أرجوه منك، ولو
أطمعتني في قليل كان يكفيني

وله فيها قصائد كثيرة أخرى، يقول في إحداها:

ألا يا (عتب) يا قمر الرصافه
رزقت مودتي، ورزقت عطفي
وصرت من الهوى دنفًا سقيمًا
أظل إذا رأيتك مستكينًا
يا ذات الملاحه والنظافه
ولم أرزق - فديتك - منك رافه
صريعًا كالصريع من السلافه
كأنك قد بُعثت علي آفَه

ومن قوله فيها أيضًا:

قال لي أحمد، ولم يدر ما بي
فتنفست، ثم قلت: نعم، حبًّا
لو تجسّين يا (عتيبة) قلبي
قد لعمرى ملّ الطبيب ومل
ليتني مت فاسترحت، فإني
أحب الغداة (عتبة) حقًّا؟
جری في العروق، عرقًا فعرقًا
لوجدت الفؤاد قرحًا ... تفقًا
الأهل مني، مما أقاسي وألقى
أبدًا — ما حييت — منه ملقى

وفيه يقول:

(عتب) ما للخيال
لا أراه ... أتاني
لو ... رأني صديقي
أو ... يراني عدوي
خبريني ومالي؟
زائرًا ... مذ ليالٍ
رق لي، أو رثي لي
لان من سوء حالي

من الحب إلى الزهد

وحدث أبو العباس: أحمد بن يحيى ثعلب قال: كان أبو العتاهية قد أكثر مسألة الرشيد في (عتبة)، فوعده بتزويجها، وأنه سيسألها في ذلك، فإن أجابت جهزها له، وأعطاه مألًا عظيمًا، ثم إن الرشيد سرح له شغل استمر به، فحجب أبو العتاهية عن الوصول إليه، فدفع إلى (مسرور) الكبير ثلاث مراوح، فدخل بها على الرشيد وهو يبتسم، وكانت مجتمعة، فقرأ على واحدة منها مكتوبًا:

ولقد تنسّمت الرياح لحاجتي
فإذا لها من راحتك شميم

فقال الرشيد: أحسن الخبيث. إذن ... عليّ بالثانية، وكان مكتوبًا عليها:

أغلقت نفسي من رجائك ما له
عنق يحث إليك بي، ورسيم

طرائف عن الحب

فقال الرشيد: علي بالثالثة، وكان مكتوباً عليها:

ولربما استيأست، ثم أقول: لا إن الذي ضمن النجاح كريم

فقال الرشيد: قاتله الله، ما أحسن ما قال، ثم دعا به، وقال له: قد ضمننت لك يا أبا العتاهية، وفي غد نقضي حاجتك إن شاء الله، وبعث إلى (عتبة)، وقال لها: إن لي إليك حاجة، فانتظريني الليلة في منزلك.
فأكبرت (عتبة) ذلك وأعظمتها، وصارت إليه تستعفيه، فحلف ألا يذكر لها حاجته إلا في منزلها.

فلما كان الليل سار إليها، ومعه جماعة من خواص خدمه، فقال لها: لست أذكر حاجتي أو تضمين قضاءها؟ قالت: أنا أمتك، وأمرك نافذ في ... فيما خلا أمر أبي العتاهية، فإني حلفت لأبيك (رضي الله عنه) بكل يمين يحلف بها بر وفاجر، وبالمشي إلى بيت الله الحرام حافية، كلما انقضت عني حجة وجبت عليّ أخرى، لا أقتصر على الكفارة، وكلما أفدت شيئاً تصدقت به، إلا ما أصلي فيه.

وبكت بين يديه، فرق لها ورحمها، وانصرف عنها.
وغدا عليه أبو العتاهية، فقال له الرشيد: والله ما قصرت في أمرك، ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شهود لي بذلك، وشرح له الخبر.

قال أبو العتاهية: فلما أخبرني الرشيد بذلك، مكثت ملياً لا أدري أين أنا قائم أو قاعد؟ قلت: الآن يئست منها إذ ردتك، وعلمت أنها لا تجيب أحداً بعدك.
ثم لبس أبو العتاهية الصوف، وتزهد، وقال في ذلك شعراً كثيراً، منه قوله:

قطعت منك حبائل الآمال وحططت عن ظهر المطي رحالي
ووجدت برد اليأس بين جوانحي فغنيت عن حل وعن ترحال

وروى أبو سلمة الغنوي أنه قال لأبي العتاهية: ما الذي صرفك عن قول الغزل إلى قول الزهد؟ فقال أبو العتاهية: إذن والله أخبرك، إنني لما قلت:

الله بيني وبين مولاتي أبدت لي الصد والملاات
منحتها مهجتي وخالصتي فكان هجرانها ... مكافاتي!

هَيَّمَنِي حَبْهَا، وَصِيرَنِي أَحَدُوَّةَ فِي جَمِيعِ جَارَاتِي

رَأَيْتَ فِي الْمَنَامِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، كَأَنَّ آتِيَا أَتَانِي فَقَالَ: مَا أَصَبْتَ أَحَدًا تَدْخُلُهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَتَبَةٍ، يَحْكُمُ لَكَ عَلَيْهَا بِالْمَعْصِيَةِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى؟! ... فَانْتَبَهْتَ مَذْعُورًا، وَتَبَّتْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ سَاعَتِي مِنْ قَوْلِ الْغَزْلِ.

مَعِيَ بَيْنَ أَضْلُعِي

المحبة هي بذلك المجهود فيما يرضي الحبيب. ^١ وقيل: هي سكون بلا اضطراب، واضطراب بلا سكون، يضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى محبوبه، ولا يزال يضطرب شوقًا إليه حتى يسكن عنده، وهذا معنى قولهم: هي حركة القلب على الدوام إلى المحبوب، وسكونه عنده، وقيل: هي مصاحبة المحبوب على الدوام، كما قيل:

وَمَنْ عَجِبَ أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمْ وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مِنْ لَقِيَتْ وَهُمْ مَعِيَ
وَتَطْلِبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

يَرَى الْفُؤَادَ الرُّوحِينَ يَمْتَزِجَانِ

وقال ابن الرومي:

أَعَانِقُهَا وَالنَّفْسَ بَعْدَ مَشْوَقَةٍ إِلَيْهَا، وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانُ؟
وَأَلْتَمَّ فَاهَا كِي تَزُولُ صَبَابَتِي فَيَشْتَدُّ مَا عِنْدِي مِنَ الْخَفْقَانِ
وَلَمْ يَكْ مِقْدَارَ الَّذِي بِي مِنَ الْجَوَى لِيَشْفِيهِ مَا تَرَشَّفَ الشَّفْقَانِ
كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحِينَ يَمْتَزِجَانِ

لئن ساءني لقد سرنى

وقال عبد الله بن الدمينة:

ولو قلت: طأ في النار، أعلم أنه
لقدمت رجلي نحوها ... فوطئتها
لئن ساءني أن نلتني بمساءة
رضاً لك أو مُدن لنا من وصالك
هُدى منك لي، أو ... ضلة من ضالك
لقد سرنى أنني خطرتُ ببالك

العشق عفة ونزاهة

قال الشاعر:

إذا كان حظ المرء ممن يحبه
حديث كماء المُزن بين فصوله
ولثمٌ فم عذب اللثاتِ، كأنما
وما العشق إلا عفة ونزاهة
وإني لأستحي الحبيب من التي
حراماً، فحظي ما يجل ويجمل
عتاب به حسن الحديث يفصل
جناهن شهد فتُ فيه القرنفل
وأنس قلوب أنسهن التغزل
تريب، وأدعى للجميل فأجمل

الطرف رسول رائد للقلب

قال الأصمعي: رأيت جارية في الطواف كأنها مهابة، فجعلت أنظر إليها وأملاً عيني من محاسنها، فقالت لي: يا هذا ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً
رأيت الذي لا كله أنت قادر
لقلبك يوماً، أتعبتك المناظر
عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وقال الفرزدق:

تزود منها نظرة لم تدع له
فؤادًا ولم يشعر بما قد تزودا
فلم أر مقتولاً، ولم أر قاتلاً
بغير سلاح مثلها حين أقصدا

وقال آخر:

ومن كان يؤتى من عدو وحاسد
فإني من عيني أتيت ومن قلبي
هما اعتوراني: نظرة ثم فكرة
فما أبقيا لي من رقاد ولا لبّ

وقال ابن المعتز:

متيم يرعى النجوم الدجى
يبكي عليه رحمة عاذله
عيني أشاقت بدمي في الهوى
فابكوا قتيلاً بعضه قاتله

وقال الأرجاني:

تمتعتما يا مقلتيّ بنظرة
وأوردتما قلبي أمر الموارد
أعينيّ كفاً عن فؤادي فإنه
من الظلم سعي اثنين في قتل واحد

وقال آخر:

عابت قلبي لما
فألزم القلبُ طرفي
رأيت جسمي نحيلاً
فقال طرفي لقلبي
وقال: كنت الرسولا
فقلت: كفا جميعاً
بل كنت أنت السؤولا
تركتماني قتيلاً!

لذة الحب كلها

قال الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية:

ليس للقلب والروح أذً ولا أطيب، ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله، والإقبال عليه، وعبادته وحده، وقرّة العين به، والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه ورؤيته، وإن مثقال ذرة من هذه اللذة لا يُعَدُّل بأمثال الجبال من لذات الدنيا.

وقال بعض العارفين: «من قرّت عينه بالله قرّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ويكفي في فضل هذه اللذة وشرفها أنها تخرج من القلب ألم الحسرة على ما يفوت من هذه الدنيا، حتى إنه ليتألم بأعظم ما يلتدّ بها أهلها، ويفر منه فرارهم من المؤلم، وهذا موضع الحاكم فيه الذوق لا مجرد لسان العلم». وكان بعض العارفين يقول: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيب نعيمها، فيقال له: وما هو؟ فيقول: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، ومعرفة أسمائه وصفاته.

وقال آخر: والله إنه ليمرُّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذه الحال، إنهم لفي عيش طيب. وأنت ترى محبة من محبته عذاب القلب والروح كيف توجب لصاحبها لذة يتمنى معها أنه لا يفارق من أحبه، كما قال شاعر الحماسة:

تشكّي المحبون الصباة ليتني تحملت ما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلحقها قبلي محب ولا بعدي!

أحسنّت زيدي

قال عبد الله بن المبارك: عشق هارون الرشيد جارية من جواريه، فأرادها، فقالت: إن أباك مسني؛ فشغف بها، وقال فيها:

أرى ماء وبي عطش شديد ولكن لا سبيل إلى الورود
أما يكفيك أنك تملكيني وأن الناس كلهم عبيدي
وأنت لو جهدت على تلافيني لقلت من الرضا: أحسنّت زيدي

لذة اللقاء شفاء

وذكر العتبي أن شاباً من ولد عثمان، وشاباً من ولد الحسين خرجا يريدان موضعاً لهما، فنزلا تحت سرحة، فأخذ أحدهما ورقة فكتب عليها:

خبرينا — خصصت بالغيث يا سرُّ حُ — بصدق، والصدق فيه شفاء

وكتب الآخر:

هل يموت المحب من ألم الحـ بِّ ويشفي من الحبيب اللقاء

ثم مضيا، فلما رجعا وجدا مكتوباً تحت ذلك:

إن جهلاً سؤلك السرح عما ليس يوماً عليك فيه خفاء
ليس للعاشق المحب من الحب سوى لذة اللقاء شفاء

دعاء في الطواف

وقال أبو المنجاب: رأيت في الطواف فتى، نحيف الجسم، بيِّن الضعف، يلوذ ويتعوذ ويقول:

وددت بأن الحب يجمع كله فيقذف في قلبي، وينفلق الصدر
فلا ينقضي ما في فؤادي من الهوى ومن فرحي بالحب أو ينقضي العمر

فقلت: يا فتى، ما لهذه البنية حرمة تمنعك عن هذا الكلام؟ فقال: بلى والله، ولكن الحب ملأ قلبي بفرح التذكر، ففاضت الفكرة في سرعة الأوبة إلى من لا يشذ عن معرفة ما بي، فتمنيت المنى، والله ما يسرني بما في قلبي منه ما فيه أمير المؤمنين من الملك، وإنني أدعو الله أن يثبتته في قلبي عمري، ويجعله ضجيعي في قلبي، دريت به أو لم أدر، هذا دعائي، أو أنصرف من حجتني، ثم بكى. فقلت: ما يبكيك؟ قال: خوف ألا يستجاب دعائي، وله قصدت، وفيه رغبت!

محبة الأعداء

من الكلمات المأثورة عن السيد المسيح عليه السلام قوله: «أحبوا أعداءكم».
وقال دعبل الخزاعي:

أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك لذيدة حباً لذكرك فليلمني اللوم

وقال آخر:

من كان يشكر للصديق فإنني أحبو بصالح شكري الأعداء
هم صيروا طلب المعالي ديدني حتى وطئت بنعلي الجوزاء
ولربما انتفع الفتى بعوده والسم — أحياناً — يكون شفاء

وقال آخر:

عداي لهم فضل علي ومنة فلا قطع الرحمن عني الأعدايا
همو بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

وقال أحد الشعراء:

سررت بهجرك لما علمت أن لقلبك فيه سرورا
ولولا سرورك ما سرنى ولا كنت يوماً عليه صبورا

هوامش

(١) في روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٢٩.

المصادر والمراجع

- (١) العقد الفريد.
- (٢) خلاصة الأثر.
- (٣) أمالي أبي القاسم الزجاجي.
- (٤) الإسعاف شرح شواهد الكشاف.
- (٥) المضاف والمنسوب.
- (٦) الحيوان للجاحظ.
- (٧) نفح الطيب.
- (٨) وفيات الأعيان لابن خلكان.
- (٩) خزانة الأدب للبغدادى.
- (١٠) لوعة الشاكي، ودمعة الباكي للصفدي.
- (١١) طوق الحمامة في الألفة والألاف.
- (١٢) سبحة المرجان.
- (١٣) شرح شواهد التحفة الوردية.
- (١٤) عيون التواريخ.
- (١٥) خاص الخاص للثعالبي.
- (١٦) مخطوط رقم ٦٤٨ شعر تيمور.
- (١٧) أمالي أبي علي القالي.
- (١٨) التبريزي على الحماسة.
- (١٩) سحر العيون.

- (٢٠) فوات الوفيات.
- (٢١) اليتيمة للثعالبي.
- (٢٢) بغية الوعاة.
- (٢٣) كتاب الترقيص ضمن كتاب اتفاق المباني وافتراق المعاني.
- (٢٤) إرشاد الأديب.
- (٢٥) الأغاني.
- (٢٦) العزيز المحلى.
- (٢٧) علم الدين، لعلي باشا مبارك.
- (٢٨) الروض الأنف.
- (٢٩) الكامل لابن الأثير.
- (٣٠) بدائع الفوائد.
- (٣١) روضة الأعيان للتراجم.
- (٣٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

